مدينة الأعماق

أحمد عبد السّلام البقّالي

رواية من الخيال العلمي للفتيان والفتيات

الطبعة الثانية

منشورات عكاظ

مدينة الأعماق

أحمد عبد السلام البقالي

رواية من الخيال العلمي للفتيان والفتيات

الطبعة الثانية

- 1 -

لَمْ يَعْرِفْ (مِيخَائِيلُ شِيرِيفِيَانْ)، وَهُوَ يُوَدِّعُ أُمَّهُ، أَنَّهُ مُقْبِلٌ عَلَى أَعْظَمِ وَأَخْطَرِ مُغَامَرَةٍ فِي حَيَاتِهِ... بَلْ وَفِي حياةِ أيِّ فتىً في مثْلِ سِنِّه في الْقَرْنِ العشْرِينَ !

لبس بذْلَةَ حَرَّاسِ الشَّواطئِ الرَّسْميَّةَ البَيْضاءَ، ووضع طاقيتَهُ الْقُماشيةَ السَّميكَةَ فَوْقَ رأسِه، وعانَقَ أُمَّهُ، وحمل كيسَهُ، وخرج قاصداً الْميناءَ...

كانت الْمَهمَّةُ التي تطوّع للْقيام بها كبيرةً وخطيرة، حتّى بالنِّسْبة لرجل كبير، وبحّار مُحنَّك، فما بالُك بالنِّسْبة لفتى في الثّامنة عشْرة ؟!

وضعتْهُ سيارةُ الأجْرة على باب المينـاء، فتوجّـه إلى الرّصيف الذي كانتْ ترْسو عليْه خافرةُ الشّواطئ «الجُمانـة». وهناك قـدّم نفْسـهُ لقـائـدهـا «جـالوت سيبـانكـان» بتحيّـة عسْكريّة قويّة.

ودار القـائـدُ القصيرُ الأصْلعُ الأكْرشُ حـوْل البحّـار الشّـاب، دون أنْ يردّ التّحيّـة، ودون أنْ يـأْمُرهُ بـالرّاحـة، فاحصًا تفاصيل هنْدامه، وكأنّهُ يبْحثُ عنْ خطإٍ مّا !

وحين انْتهى من الـدّوْرة التّفْتيشيـة، صـاح فيـه : «راحة !» فأنْزل ميخائيل يده، واسْترْخى قليلا.

وواجههُ القائدُ بعيْنيْه الضّيّقتيْن، وسألهُ شبْه غاضب :

- منْ عيّنك في خافرتي ؟

- القيادةُ، يا سيّدي.

- بطلب منْك ؟

- لاَ، يا سيّدي.

- هلْ لكَ قريبٌ في البحْرية ؟



وَكَادَ مِيخَائِيل يَتَرَدَّدُ، وَلَكِنَّهُ أَجَابَ بِنَفْسِ الإِيقَاعِ :

ـ لاَ، يَا سَيِّدِي.

ـ لِمَاذَا إِخْتَرْتَ الْبَحْرِيَة ؟

ـ لأَنَّنِي أُحِبُّ الْبَحْرَ...

ـ قُلْ يَا سَيِّدِي !

ـ نَعَمْ، يَا سَيِّدِي !

ـ إِذَا ضَبَطْتُكَ كَاذِباً قَطَعْتُكَ إِرْباً، وَأَلْقَيْتُ بِكَ لِلْقُرُوشِ الْمُفْتَرِسَةِ !

وَلَمْ يَدْرِ مِيخَائِيل مَا يَرُدُّ بِهِ عَلَى هَذَا التَّهْدِيدِ، فَصَاحَ :

ـ نَعَمْ، سَيِّدِي !

ـ اصْعَدْ، إِذَنْ !

- 2 -

وأبحرت الخافرةُ الكبيرةُ التي كانتْ تحملُ طاقماً من اثْني عشر بحّارا وقائدا وملازماً ورقيبيْن، وعليْها مدْفعٌ صغيرٌ ورشّاشتان. كانتْ مهمّةُ (ميخائيل شيريفانْ) - وهذا اسْمُهُ المُسْتعارُ للْعمليّة - تنْحصرُ في رصْد حركات الْقائد (جالوت سيبانكان) وطاقم خافرته، وتقْديم تقْرير عنْ تصرّفاته للْقيادة، وخصوصا في أعالي الْبحار، حيْثُ كان مسْؤولا عنْ مطاردة مراكب الصّيْد التي تصيدُ بغيْر رُخْصة، أوْ التي تصيدُ في أماكن ممْنوعة، أوْ بشباك غيْر قانونية، كالّتي يسمّيها الْبحّارةُ بالْكاشطة، لضيْق عيْونها، ولأنّها تكْشطُ قعْر الْبحْر، وتقْضي على صغار السّمك وبيْضه، وتُفْسدُ مراعيهُ.

كانت القيادة قد توصلت بمعلومات غير مؤكدة عن بعض تصرفات القائد (سيبانكان) التي لا تليق بقائد خافرة، مثل الارتشاء، والتهريب، بل ربما حتى المتاجرة في المخدرات، والتعامل مع العدو...

وكانت القوات المسلحة، بفروعها الثلاثة، تتمتع بسمعة حسنة جداً، في الداخل والخارج، وبمعنويات عالية، وانضباط كبير. وكان جميع أفرادها فخورين بالانتماء إلى أسلحتهم، ويغارون على سمعتهم غيرة شديدة، ولا يسمحون لأي واحد منهم بأي سلوك غير لائق، اعتباراً للمثل القائل : «السمكة النتنة تعفن سائر السمك».

- 3 -

ومنذ اللحظة الأولى، شعر ميخائيل أن طاقم الخافرة يعاملة بحذر وشك... ولكنة تذكر مهمتة الخطيرة، وعقد العزم على تنفيذها، بكل ما له من ذكاء وقوة، وقدرة على تصنع البساطة والسذاجة.

ووضعة القائد «سيبانكان» تحت إمرة الرقيب الأول (فدو تروتزان). فأخذه هذا إلى داخل المركب، ونزل به إلى سفل، حيث توجد مراقد البحارة، وعين لة سريرا وخزانة صغيرة :

- سيكون هذا فراشك. ضع ملابسك في هذه الخزانة. واصعد...

وجال به وسط الْخافرة، وقدَمهُ لطاقمها بأسْمـائهمْ. لمْ يكنْ أحدٌ منْهمْ في سنَه...

وعلى باب غرْفـة الْقيـادة، قـال لـهُ بخشْونـة : «هـذه غرْفةُ الْقيادة، لا تدْخلْها إلاَ بإذْن الْقائد !».

وبعْد نهاية الْجوْلة، أخـذهُ إلى مطْبخ صغير، وقـدّمـهُ إلى رجُل في سنّ والده : «هذا الْمعلّمْ «صيرافينْ» طبّاخنـا، ستكونُ مُساعدهُ».

وصـافحـهُ «ميخـائيـلْ». وتركهمـا الرّقيبُ «بْرونْـزانْ» وذهب.

وجلس ميخـائيـلْ مـع «صيرافين» الـذي كـان يُقشّرُ الْبطاطس، فصبّ لهُ هذا كأس قهْوة بالْحليب، وأخذ يسْألـهُ عنْ نفْسه.

وَمنَ اللّحْظَـةِ الأُولَى، اسْتـأْنس «ميخـائيلَ» بـالرّجُـل، وَأَحسَّ بالدِّفْءِ مِنْ جَانِبه، وَخُصُوصـاً حين أخْبرهُ هـذا بـأنَّ لَهُ وَلَداً فِي مِثْل سِنِّه، يَدْرُسُ بالجَامعَة.



وَسَمِعَ «مِيخَائِيلُ» أَذَانَ الظُّهْرِ فِي مِذْيَاعِ الْمَطْبَخِ، فَسَأَلَ : «صِيرَافِينَ» :

- أَيْنَ يُمْكِنُنِي أَنْ أَتَوَضَّأَ ؟
- الْمَرَاحِيضُ تَحْتُ.

وَتَوَضَّأَ «مِيخَائِيلُ»، وَعَادَ إِلَى ظَهْرِ الْخَافِرَةِ، وَاخْتَارَ مَكَاناً بِمُؤَخِّرَتِهَا، وَتَوَجَّهَ صَوْبَ القِبْلَةِ، وَرَفَعَ يَدَيْهِ وَكَبَّرَ.

كَبُرَ (مِيخَائِيلُ) فِي عَيْنِ الطَّبَّاخِ، حِينَ رَآهُ يُصَلِّي بِخُشُوعٍ حَقِيقِيٍّ، وَأَحَسَّ، فِي أَعْمَاقِهِ، بِأَنَّهُ وَلَدٌ مُؤْمِنٌ، فَقَرَّرَ أَنْ يُعَامِلَهُ كَابْنِهِ، وَيَبْذُلَ لَهُ النَّصِيحَةَ حَتَّى لاَ يَقَعَ فِي فَخٍّ.

وَبَعْدَ الصَّلاَةِ، وَزَّعَ (مِيخَائِيلُ) الْغَدَاءَ عَلَى الْبَحَّارَةِ، وَجَلَسَ مَعَ «صِيرَافِينَ» يَتَغَدَّيَانِ: فَأَخَذَ هَذَا يَنْصَحُهُ بِأَنْ يَلْتَزِمَ الْحَذَرَ وَالصَّمْتَ مَعَ بَعْضِ أَفْرَادِ طَاقَمِ الْخَافِرَةِ، وَخُصُوصاً الْقَائِدَ (سِيبَانْكَان)، وَالرَّقِيبَ (بْرونْزَان)، وَالرَّقِيبَ الثَّانِي (جُورْدَاك)، وَأَلاَ يُصَلِّيَ أَمَامَهُمْ، فَلَيْسَ بَيْنَهُمْ مُصَلٍّ ! وَسَوْفَ يُعَرِّضُ نَفْسَهُ لِسُخْرِيَتِهِمْ وَأَذَاهُم. وَقَالَ :

ـ إِنَّهمْ لا يعْرفُـون أنّني أُصلّي ! أنـــا أُصلّي سرّاً. وسَوْفَ نُصلّي جمَاعةً في غفْلة منْهُمْ.

وأَضَافَ هَامساً : «الْقائدُ ومُساعداهُ جماعـةٌ من الْقتلـة وَالْمُهَرِّبين... ولَـوْلاَ أنَّني أَشْرفْتُ على التَقـاعُـد، ولـي أُسْرةٌ كَبيرَةٌ أَخَافُ عَلَى رِزْقِهَا، لَمَا بَقيتُ بيْنهُمْ لحْظةً !».

فَتَشَجَّعَ «ميخَائيلُ» وَسَأَلَ :

ـ مَاذَا يَفْعَلُونَ ؟

ـ الأَحْسَنُ أَلاَّ تَسْـأَلَ يَـا وَلَــدِي ! وَإلاَّ لَقِيت مَصير رَجُــلٍ مُــومنٍ، حَــاوَلَ أَنْ يُغَيِّرَ الْمُنْكَرَ عَلَى ظَهْر هَــذِهِ الْخَافِرَةِ...

ـ مَاذَا حَدَثَ لَهُ ؟

ـ أَطْلَقُوا عَلَيْـهِ النَّـارَ، وَرَمَـوْا بِـهِ فِي الْبَحْرِ، وَأَخْبَرُوا الْقِيَـادَةَ بِـأَنَّـهُ فُقِـدَ فِي مَعْرَكَـةٍ مَعَ الْقَرَاصِنَـةِ... وَلاَ يُـوجَـدُ قَرَاصِنَةٌ غَيْرُهُمَ فِي هَذِهِ الْمِيَاهِ !

وأدرك الرّجلَ أنّهَ قال أكْثر ممّا كَانَ يَنْوي أنْ يقول، فوضع يدهَ على فمه، وقال هامساً :

ـ أرْجوكَ يا ولدي ! لاتقلْ مَا سمعْتَهَ لأحدٍ... حتّى أقرب النّاس إليْكِ ! فقدْ توسّمْتُ فيكَ الْخيْرَ لبَرَاءَتِك وتديّنك، ورغْبتي في أنْ تخْرج سالماً منْ هَذهِ الْمَهمَّة.

فطمْأنه (ميخائيل)، وشكَرهُ على ثقَتهِ الْكَبيرَة، وأحسَ برغْبة شديدة في أنْ يَطّلعَهُ عَلَى سِرّه، وَيُخْبرَهُ بحقيقة مَهمّته، لعلَهَ يساعدهَ في أدائِها، وَلَكِنَّهُ تَرَدَّدَ، وَفَضّلَ الانْتظار حتّى يتأكّدَ... ورغْمَ ذَلكَ، لمْ يَسْتَطِعْ كَتْمَ استغْرابه، فقَالَ متَسائِلاً :

ـ كَيْفَ يمْكِنُ أنْ يُوجدَ كُلُّ هَذَا الْفَسَادِ فِي قُوَّاتِنَا الْبَحْرِيَةِ الْعَتيدَةِ ؟!

فَرَدَّ (صِيرَافِين) بِحِكْمَةِ الْمُجَرِّبِ :

ـ الْفَسَادُ، يَا وَلَدِي، مِنْ طَبِيعَةِ الْحَيَاةِ. وَهُوَ مَوْجُودٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ، تَمَاماً كَالْمَرَضِ بِالنِّسْبَةِ لِلْبَدَنِ. وَلَكِنَّ

اَلْفَسَادَ اَلْحَقِيقِيَ هُوَ السُّكُوتُ عِنِ الْفَسَادِ !

فَرَدَّ (مِيخَائِيلُ) بِعَزْمٍ كَبِيرٍ :

ـ وَلَكِنَّنَا لَنْ نَسْكُتَ عَنْهُ أَبَداً !

- 4 -

وَفِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ، وَالْبَحَّـارَةُ مَشْغُولُونَ بِلَعِبِ الْوَرَقِ، أَوْ مَسْـحِ الأُفُـقِ بَحْثـاً عَنِ السُّفُنِ، جَلَسَ (مِيخَـائِيـلُ) إِلَى (صِيرَافِينَ)، بَعْدَ أَنْ غَسَلاَ الأَطْبَاقَ، وَقَالَ لَهُ :

ـ أَثْنَـاءَ الْغَـدَاءِ اسْتَـأْمَنْتَنِي عَلَى بَعْضِ أَسْرَارِكَ الْخَطِيرَةِ، وَقَـدْ احْسَسْت بِصِـدْقِ مَشَاعِرِكَ، وَبِأَنَّـكَ جَـدِيرٌ بِالثِّقَةِ. لِذَلِـكَ سَـأُخْبِرُكَ أَنَـا بِبَعْضِ أَسْرَارِي، لَعَلَّـكَ تَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتِي.

وَوَضَـعَ (صِيرَافِينُ) أُصْبُعَـهُ عَلَى شَفَتَيْـهِ، وَخَرَجَ مِنَ الْغُرْفَةِ، وَدَارَ حَوْلَهَا، ثُمَّ عَادَ :

ـ اسْمَعْ يَـا وَلَـدِي... لاَ تَقُـلْ لِي شَيْئـاً إِلاَّ إِذَا كُنْت مُتَأَكِّداً مِنْ أَنَّنِي أَسْتَطِيعُ مُسَاعَدَتَك. وَلاَ تَرْفَعْ صَوْتَك.

ـ أَنَا مُتَـأَكِّـدٌ مِنْ أَنَّـكَ تَسْتَطِيعُ مُسَـاعَـدَتِي. أَنَـا ابْنُ الرَّقِيبِ الْمَفْقُودِ «نَـدِيمْ نُورِيـاك» الـذِي قَتَلُوهُ وَأَلْقَواْ بِـهِ فِي الْبَحْرِ !

وَجَحَظَتْ عَيْنَا (صِيرَافِينَ) لِلْخَبَرِ :

ـ وَمَاذَا تَفْعَلُ هُنَا مَعَ قَتَلَةِ وَالِدِك !؟

ـ تَطَوَّعْتُ لِرَصْدِ حَرَكَاتِ قَائِد الخَافِرَة «سِيبَانكـان»، وَتَقْدِيمِ تَقْرِيرٍ عَنْهُ لِلْقِيَادَةِ... لِذَلِـكَ غَيَّرْتُ اسْمِي من (نُوري نوري‌اك) إِلَى (مِيخَائِيل شِيرِيفْيَانْ). حَتَّى لاَ أُثِيرَ شُكُوكَهُمْ. أُرِيدُ أَنْ أَكْشِفَ قَتَلَةَ وَالِدِي، وَأُقَدِّمَهُمْ لِلْعَدَالَةِ.

ـ يَا إِلَهِي ! لَوْ عَرَفَ (سِيبَانْكَـان) هَذَا لَمَـا تَرَدَّدَ فِيْ قَتْلِكَ أَنْتَ كَذَلِكَ، وَإِلْقَائِكَ فِي الْبَحْرِ ! مَا كَـانَ يَنْبَغِي أَنْ تَبُوحَ بِسِرِّكَ هَذَا حَتَّى لِي أَنَا ! إِنَّهُ خَطَرٌ عَلَيْك !

ـ لاَ تَقْلَقْ ! لَنْ أَبُوحَ بِهِ لأَحَدٍ غَيْرِكَ. إِنَّكَ لاَ تَتَصَوَّرُ كَمْ أَنَا سَعِيدٌ بِمُقَابَلَتِكَ ! فَقَدْ أَكَّدْتَ لِي مَا كُنْتُ أَشْعُرُ بِهِ فِي أَعْمَاقِي... وَهُوَ أَنَّ وَالِدِي لَمْ يَمُتْ فِي مَعْرَكَةٍ، بَلْ قُتِلَ غَدْراً ! بِخِلاَفِ التَّقْرِيرِ الَّذِي قَدَّمَهُ (سِيبَانْكَان) لِلْقِيَادَةِ.

وَسَكَتَ قَلِيلاً، وَقَالَ، وَقَدْ تَهَدَّجَ صَوْتُهُ، وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَاهُ، وَهُوَ يَتَذَكَّرُ آخِرَ جَلْسَةٍ لَهُ مَعَ وَالِدِهِ :

ـ كَانَ، رَحِمَهُ اللَّهُ، مُتَشَائِماً، ذَلِكَ الصَّبَاحَ، الَّذِي كَانَ سَيَخْرُجُ فِيهِ مَعَ سِيبَانْكَان ـ وَقَدْ عَبَّرَ لِوَالِدَتِي عَنْ تَشَاؤُمِهِ، حِينَ سَأَلَتْهُ عَنْ وُجُومِهِ عَلَى مَائِدَةِ الْفُطُورِ، عَلَى غَيْرِ عَادَتِهِ. وَنَصَحَتْهُ بِأَلاَّ يَصْطَدِمَ مَعَ (سِيبَانْكَان)، وَأَنْ يُغْمِضَ عَيْنَيْهِ إِذَا رَأَى مَا لاَ يُعْجِبُهُ. وَلَكِنَّ وَالِدِي لَمْ يَكُنْ مِنْ ذَلِكَ النَّوْعِ.

وَهَكَذَا رُزِئْنَا فِيهِ، وَلَمْ نَحْظَ حَتَّى بِدَفْنِهِ فِي الْيَابِسَةِ، وَزِيَارَتِهِ مِنْ حِينٍ لآخَرَ...

وَأَجْهَشَ بَاكِياً، فَأَمْسَكَ (صِيرَافِينُ) بِيَدَيْهِ، يُهَدِّئُهُ، وَيَنْظُرُ مِنْ فَوْقِ كَتِفَيْهِ إِلَى الْخَارِجِ فِي قَلَقٍ، وَمَسَحَ (مِيخَائِيلُ) عَيْنَيْهِ، وَقَالَ :

ـ سَامِحْنِي يَا سَيِّدِي (صِيرَافِين)، فَقَدْ كُنْتُ شَدِيدَ القُرْبِ مِن وَالِدِي... أَنَا بِكْرُ الأُسْرَةِ... أَنْتَ وَالِدٌ، وَتَعْرِفُ...

فَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنَا الرَّجُلِ الأَشْيَبِ بِالدُّمُوعِ، وَأَخَذَ يُخْفِيهَا عَن (مِيخَائِيل).

وَعَادَ الْهُدُوءُ إِلَى نَفْسِ (مِيخَائِيلَ) فَقَالَ :

ـ لاَ تَقْلَقْ يَا (صِيرَافِين) ـ لَنْ أَطْلُبَ مِنْكَ الشَّهَادَةَ عَلَى مَقْتَلِ الْوَالِدِ، إِلاَّ إِذَا تَطَوَّعْتَ أَنْتَ بِهَا ! أُرِيدُ فَقَطْ أَنْ تُسَاعِدَنِي عَلَى جَمْعِ بَعْضِ الأَدِلَّةِ عَلَى إِدَانَةِ (سِيبَانكَان) وَلَوْ بِجَرِيمَةٍ أُخْرَى... الْمُهِمُّ أَنْ نُزِيلَهُ مِنَ الطَّرِيقِ، وَتَرْتَاحَ رُوحُ الْوَالِدِ الشَّهِيدِ، وَيَسْلَمَ شَرَفُ البَحْرِيَّةِ.

فَحَرَّكَ (صِيرَافِين) رَأْسَهُ حَائِراً :

ـ يَا وَلَدِي ـ هَذِهِ مُهِمَّةٌ أَكْبَرُ كَثِيراً مِنْ سِنِّكَ ! وَمَا كَانَ يَنْبَغِي لِلْقِيَادَةِ أَنْ تَقْبَلَ تَطَوُّعَكَ لَهَا. أَنْتَ لاَ تَعْرِفُ (سِيبَانْكَان)... إِنَّهُ أُخْطُبُوطٌ كَبِيرٌ، لَهُ مَعَارِفُ وَجَوَاسِيسُ مَأْجُورُونَ فِي كُلِّ مَكَانٍ ـ وَقَدْ يَكْتَشِفُ سِرَّكَ... لاَ قَدَّرَ ٱللَّهُ !

وَكَأَنَّمَا تَذَكَّرَ أَنَّهُ قَدْ يُسَبِّبُ لِلْفَتَى الصَّغِيرِ رُعْباً، فَتَوَقَّفَ، وَأَضَافَ :

ـ وَلَكِنْ، إِذَا كَانَ لاَبُدَّ، فَكُنْ قَوِيَ الإِيمَانِ بِاللَّهِ، فَهُوَ يُمْهِلُ وَلاَ يُهْمِلُ !

وَفِي تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ، بَاتَ (مِيخَائِيلُ) يُرَاقِبُ كُلَّ مَا يَحْدُثُ حَوْلَهُ فِي الْخَافِرَةِ وَخَارِجَهَا.

كَانَ الْجَوُّ جَمِيلاً، وَالْقَمَرُ بَدْراً كَامِلاً، وَالبَحْرُ هَادِئاً تَتَلأْلأُ صَفْحَتُهُ بِضَوْءِ الْقَمَرِ الذَّهَبِي، وَتُرَى أَضْوَاءُ السُّفُنِ عَلَى بُعْدِ أَمْيَالٍ.

وَخَـدَّرَهُ ذَلِـكَ ٱلْمَشْهَـدُ الشَّـاعِرِيُّ، وَرَتَـابَـةُ صَـوْتِ الْمُحَرِّكِ، فَرَاحَ يَسْتَعْرِضُ الْمَرَاحِلَ الَتِي أَدَّتْ بِـهِ إِلَى وَضْعِـهِ الْحَالِي الْخَطِير... وَتَمَنَى لَوْ كَانَ أَبُوهُ مَـا يَزَالُ حَيّـاً، وَأَنَّـهُ دَخَلَ ٱلْجَامِعَةَ، وَعَكَفَ عَلَى دِرَاسَةِ البيُولُوجيَـا التِي يُحِبُّهَـا، بَدَلاً مِن أَنْ يَتَطَوَّعَ لِلثَّأْرِ لأَبِيهِ مِنْ هَذَا الْوَحْشِ الْفَاتِـكِ فِي أَعَالِي الْبِحَارِ...

وَتَـذَكَّرَ كَيْفَ حَكَى لِخَـالِـهِ الْمُحَـامِي الْمَعْرُوفِ عَنْ تَشَـاؤُمِ وَالِـدِهِ مِنَ الْخُرُوجِ مَعَ الْقَـائِـدِ (سِيبَـانْكَـان)، وَكَيْفَ أَخَذَهُ خَـالُـهُ إِلَى صَـدِيقِـهِ الْقَـاضِي، وَكَيْفَ اقْتَرَحَ هَـذَا عَلَى الْقِيَادَةِ زَرْعَ عَيْنٍ عَلَى حَرَكَات (سِيبَـانْكَـان)، وَكَيْفَ تَطَوَّعَ هُوَ لِلْعَمَلِيَّةِ.

كُـلُّ ذَلِـكَ تَمَّ بِسُرْعَـةٍ كَبِيرَةٍ، فَبَعَثَتْ بِـهِ الْقِيَـادَةُ لِلتَّـدْرِيبِ لِمُـدَّةِ سِتَّـةِ أَشْهُرٍ، تَعَلَّمَ فِيهَـا مَـا يَتَعَلَّمُـهُ الْمُجَنَّـدُ الْعَادِي فِي ثَلاَثِ سَنَوَات، فَأُعْجِبَ بِـهِ مُـدَرِّبُوه، وَتَنَبَّؤُوا لَـهُ بِمُسْتَقْبَلٍ كَبِيرٍ فِي الْبَحْرِيَةِ.

أَحَسَّ (مِيخَائِيلُ) بِتَغَيُّرٍ فِي سُرْعَةِ الخَافِرَةِ، وَبِبُطْءٍ فِي إِيقَاعِ مُحَرِّكِهَا، فَنَظَرَ مِن نَافِذَةِ الْمَطْبَخِ، فَإِذَا بِهِمْ يَقْتَرِبُونَ مِنْ بَاخِرَةِ صَيْدٍ ضَخْمَةٍ، كُتِبَ عَلَى جَانِبِهَا بِحُرُوفٍ كَبِيرَةٍ. (الـكَرِيسْتِينَا).

وَمَسَحَ يَدَيْهِ، وَهَمَّ بِالصُّعُودِ، فَأَمْسَكَ (صِيرَافِينُ) بِسَاعِدِهِ :

- إِلَى أَيْنَ ؟
- لأَتَفَرَّجَ عَلَى هَذِهِ الْبَاخِرَةِ.
- لاَ تَفْعَلْ... سَتُثِيرُ شُكُوكَ اَلْقَائِدِ (سِيبَانْكَان).

وَنَظَرَ مِنَ اَلنَّافِذَةِ وَأَضَافَ :

- هَذِهِ «الكَرِيسْتِينَا». قَائِدُهَا قَاطِعُ طَرِيقٍ كَبِيرٌ، اسْمُهُ (فَارِيلاَ). يُتَاجِرُ فِي كُلِّ شَيْءٍ إلاَّ اَلْحَلاَلَ... فِي السِّلاَحِ، فِي الْمُخَدِّرَات، فِي الْعَبِيدِ وَالرَّقِيقِ الأَبْيَض، وَيَتَظَاهَرُ بِأَنَّهُ قَائِدُ بَاخِرَةِ صَيْدٍ عَادِيَةٍ... وَإِضَافَةً إِلَى ذَلِكَ يَسْتَعْمِلُ الشِّبَاكَ اَلْمُحَرَّمَةَ ذَاتَ اَلْعُيُونِ الضَّيِّقَةِ... وَيَصِيدُ

بِدُونِ رُخْصَةٍ !

ـ وَلِمَاذَا لاَ نَقْبِضُ عَلَيْهِ ؟

فَحَرَّكَ (صِيرَافِينُ) رَأْسَهُ بِمَرَارَة :

ـ إنَّ لَهُ سِلاَحاً أَقْوَى مِنْ سِلاَحِنَا !

ـ أَيُّ سِلاَحٍ هَذَا ؟

ـ الدُّولاَرْ ! (سِيبَانْكَان) صَدِيقُهُ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ بَيْنَهُمَا تِجَارَةً فِي المُخَدِّرَاتِ ـ وَهُمَا طَرَفَانِ فِي عِصَابَةٍ دَوْلِيَةٍ كَبِيرَةٍ، فِي نَظَرِي...

كَانَ يَهْمِسُ إِلَيْهِ بِهَذَا، وَهُمَا يَنْظُرَانِ إِلَى جِدَارِ البَاخِرَةِ الْعَالِي، يَقْتَرِبُ حَتَّى كَادَ يَلْمِسُ جَانِبَ الْخَافِرَةِ.

وَنَزَلَ من عَلَى سُلَّمِهَا رَجُلٌ طَوِيلٌ، بِلِحْيَةٍ سَوْدَاءَ، وَخَطَهَا الشَّيْبُ، وَعَلَى رَأْسِهِ قُبَّعَةٌ زَرْقَاء، وَفِي يَدِهِ حَقِيبَةٌ سَوْدَاءُ، وَعَلَى وَجْهِهِ ابْتِسَامَةٌ لَمْ يَدْرِ (مِيخَائِيلُ) هَلْ كَانَتْ ابْتِسَامَةَ فَرْحَةٍ، أَمْ سُخْرِيَةٍ وَاحْتِقَار !

وَكَانَ فِي اسْتِقْبَالِهِ (سِيبَانْكَان) فَتَصَافَحَ الرَّجُلان، وَدخَلاَ غُرْفَةَ اَلْقِيَادَةِ.

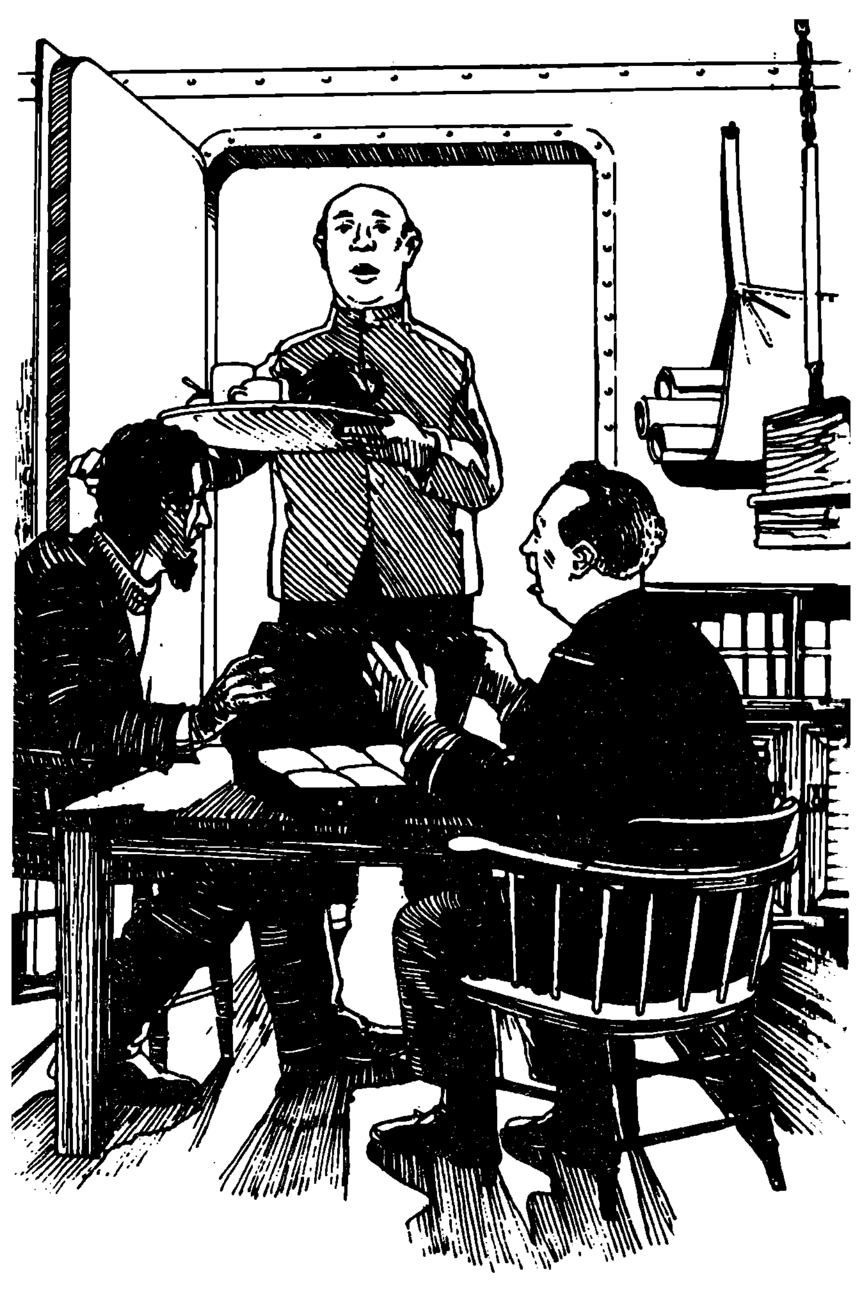
وَحَاوَلَ (مِيخَائِيلُ) الصُّعُودَ، مَرَّةً أُخْرَى، فَمَنَعهُ (صِيرافِينُ) بِقُوَّةٍ :

ـ لاَ تَفْعَلْ !

ـ وَلَكِنْ هَذِهِ فُرْصَةٌ ثَمِينَةٌ لِلْحُصُولِ عَلَى بَعْضِ الْمَعْلُومَاتِ لإدَانَةِ (سِيبَانْكَان) !

ـ سَأَحْصُلُ لَكَ عَلَيْهَا.

وَطَلَبَ مِنْ (مِيخَائِيلَ) أَنْ يُعِدَّ صِينِيَةَ الشَّاي، وَيَضَعَ عَلَيْهَا بَعْضَ قِنِّينَاتِ النَّبِيذِ، وَذَهَبَ هُوَ لاِرْتِدَاءِ مَلاَبِسِهِ. وَحِينَ عَادَ كَانَ يَلْبَسُ حُلَّةَ نَادِلٍ، أَنِيقَةً بَيْضَاءَ، وَقُفَّازَيْنِ نَظِيفَيْنِ، فَتَنَاوَلَ الصِّينِيَةَ، وَصَعَدَ إِلَى غُرْفَةِ الْقِيَادَةِ، حَيْثُ وَقَفَ عَلَى اَلْبَابِ يَنْتَظِرُ، وَيُنْصِتُ إِلَى حَدِيثِ الْقَائِدَيْن، دُونَ أَنْ يَطْرُقَ اَلْبَابَ.



وَبعْدَ أَنْ سَمِعَ أَهَمَّ مَا دَارَ بَيْنَهُمَا، وَدَخَلاَ فِي حَدِيثِ الْمُجَامَلاَتِ، طَرَقَ اَلْبَابَ وَدَخَلَ، فَفُوجِئَ (سِيبَانْكَان) قَلِيلاً بِدُخُولِهِ، وَأَسْرَعَ إِلَى إِقْفَالِ الْحَقِيبَةِ السَّوْدَاءِ عَلَى مَا بِدَاخِلِهَا مِنْ أَكْيَاسِ بِلاَسْتِيكَ، تَحْتَوِي دَقِيقاً أَبْيَضَ...

وَصَبَّ (لِقَارِيلاَ) نَبِيذَهُ الْمُفَضَّلَ، وَلِـ (سِيبَانْكَان) فَنْجَانَ شَايٍ، وَتَرَكَ الصِّينِيَةَ وَخَرَجَ...

وَفِي الْمَطْبَخِ، أَخْبَرَ (مِيخَائِيل) بِمَا رَأَى وَمَا سَمِعَ، فَضَرَبَ هَذَا بِقَبْضَتِهِ فِي كَفِّهِ، وَقَالَ بِصَوْتٍ مَكْبُوتٍ :

- هَذِهِ فُرْصَةٌ هَائِلَةٌ لِلْقَبْضِ عَلَيْهِمَا !
- وَلَكِنْ كَيْفَ ؟
- لَوْ اسْتَطَعْنَا الاتِّصَالَ بِالْقِيَادَةِ.
- كَيْفَ ؟ وَحَتَّى لَوْ اتَّصَلْتَ، فَلَنْ يَجِدُوا مَعَهُ شَيْئاً - إِنَّهُ يُسَلِّمُ الشُّحْنَةَ لِقَارِبٍ صَغِيرٍ مِنْ قَوَارِبِ الصَّيَّادِينَ، قُرْبَ اَلشَّاطِئِ، وَيَدْخُلُ نَظِيفَ اَلْيَدَيْنِ...

لَيْتَنِي كُنْتُ طَلَبْتُ مِنَ اَلْقِيَــادَةِ تَــزْوِيــدِي بِجِهَــازِ إِرْسَالٍ...

- لاَ تَفْعَلْ - سَيَكْتَشِفُونَهُ !

فَحَرَّكَ رَأْسَهُ يَائِساً :

- وَلَكِنْ لِمَاذَا وَافَقُوا عَلَى إِعْطَائِي هَذِهِ الْمُهِمَّةَ ؟!

- لاَ تَقْلَقْ ! سَنَجِدُ وَسِيلَةً مَّا !

وَعَــادَ القَبْطَــانِ (فَــارِيــلاَ) إِلَى بَــاخِرَتِــهِ. وَوَدَّعَــهُ (سِيَانْكَان) عَلَى السُّلَّمِ، قَائِلاً بِابْتِسَامَةٍ مَاكِرَة :

- إِذَا وَجَـدْتُـكَ مَرَّةً أُخْرَى، تَصِيــدُ بِــدُونِ رُخْصَــةٍ، وَبِــالشِّبَــاكِ الْمَمْنُــوعَــةِ، فَسَــوفَ أَجُرُّكَ إِلَى اَلْمِينَــاءِ ، وَلَنْ تَنْفَعَكَ الْغَرَامَةُ !

فَضَحِـكَ القُبْطَـانُ الْعِمْلاَق، وَهُوَ يَعَضُّ عَلَى سِيجَـارِهِ الْكَبِيرِ بِأَسْنَانٍ قَوِيَّةٍ، وَقَالَ :

- لَنْ أُعِيدَهَا، يَا سَيِّدِي، لَنْ أُعِيدَهَا !

وَافْتَرَقَ اَلْمَرْكَبَانِ...

وَأَوَى (مِيخَـائِيـلُ) إِلَى غُرْفَـةِ النَّـوْمِ، وَاضْطَجَـعَ فِي الظَّلَامِ، يُفَكِّرُ وَيُفَكِّرُ، حَتَّى تَعِبَ... وَتَحَـوَّلَتْ أَفْكَـارُهُ إِلَى أَحْلَامٍ...

- 5 -

وَاسْتَيْقَظَ مِنْ غَفْوَتِهِ عَلَى يَدٍ تُحَرِّكُهُ، وَصَوْتٍ يُكَلِّمُهُ، فَفَتَحَ عَيْنَيْهِ فَرَأَى وَجْهَ وَالِدِهِ، وَقَدْ ارْتَسَمَتْ عَلَيْهِ مَعَالِمُ الانْزِعَاجِ، فَجَلَس فِي سَرِيرِهِ، وَفَتَحَ عَيْنَيهِ، فَتَحَوَّلَ وَجْهُ وَالِدِهِ إِلَى طَيْفٍ سُرْعَانَ مَا اخْتَفَى...

وَنَظَرَ مِنَ ٱلنَّافِذَةِ الْمُسْتَدِيرَةِ التِي كَانَ يُطِلُّ مِنْهَا عَلَى ٱلْبَحْرِ، فَرَأَى زَوْرَقاً بُخَارِياً يَقْتَرِبُ مِنْهُمْ...

وَقَفَزَ مِنَ السَّرِيرِ، وَصَعَدَ إِلَى السَّطْحِ حَذِراً، حَتَّى لاَ يَرَاهُ (سِيبَانْكَان).

وَحِينَ تَساوَتِ الْخَافِرَةُ وَالزَّوْرَقُ، مَدَّ بَحَّارٌ مِنَ الزَّوْرَقِ غلافاً إِلَى ٱلْقَائِدِ (سِيبَانْكَـان)، وَرَفَعَ لَـهُ التَّحِيَّـةَ، وَتَبَـاعَـدَتِ المَرْكَبَتَان.

وَدَخَلَ (سِيبَانْكَان) غُرْفَةَ القِيَّـادَةِ، لِيَقْرَأَ الرِّسَـالَـةَ عَلَى ضَوْئِهَـا، وَلَمْ يَسْتَطِعْ (مِيخَـائِيـلُ) أَنْ يَرَى مَـا يَحْـدُثُ بَعْـدَ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ شَعُرَ بِانْقِبَاضٍ مُفَاجِئٍ...

- 6 -

قَرَأَ الْقَائِدُ (سِيبَانْكَان) الرِّسَالَةَ، وَقَطَّبَ حَاجِبَيْهِ قَلِيلاً، ثُمَّ ابْتَسَمَ...

وَاقْتَرَبَ مِنْهُ الرَّقِيبُ (فَادُو بْرُونْزَاك)، فَقَالَ لَهُ :

- مَعَنَا جَاسُوسٌ.

- مَنْ ؟

- الْوَلَدُ اَلْجَدِيدُ، (مِيخَائِيلُ). اَسْمُهُ الْحَقِيقِيُ (نُورْ نُورْيَاك)...

- هَلْ لَهُ عَلاَقَةٌ مَعَ...؟

- نَعَمْ (نَدِيم نُورْيَاك) ! الصَّالِحُ الْمُصْلِحُ الَّذِي تَخَلَّصْنَا مِنْهُ مُنْذُ تِسْعَةِ شُهُورٍ ! إِنَّهُ ابْنُهُ جَاءَ لِيَنْتَقِمَ لأَبِيه !

ـ مَاذَا سَنَفْعَلُ بِهِ ؟

ـ مَا فَعَلْنَـاهُ بِوَالِـدِهِ... سَنُلْحِقُـهُ بِـالرَّفِيقِ الأَعْلَى فِي قَعْرِ الْبَحْرِ حَيْثُ يُوجَدُ أَبُوهُ !

وَطَلَبَ مِنْ ضَابِطِ اتِّصَالِـهِ أَنْ يُوصِلَـهُ بِـالزَّوْرَقِ الـذِي جَاءَهُمْ بِالرِّسَالَـةِ، وَتَنَـاوَلَ اَلسَّمَـاعَـةَ، وَانْتَظَرَ قَلِيلاً، ثُمَّ هَمَسَ فِيهَـا بِبَعْضِ اَلتَّعْلِيمَـاتِ، وَعَلَّقَهَـا ـ وَتَـوَجَّـهَ إِلَى الرَّقِيبِ بْرُونْزَاك الذِي كَانَ يَنْتَظِرُ أَوَامِرَهُ :

ـ اسْتَعِدُّوا لِمَعْرَكَةٍ وَهْمِيَةٍ، بِرَصَاصٍ فَارِغٍ، مَعَ مَرْكَبِ عَدُوٍّ سَيُهَاجِمُنَا... أَيْقِظِ اَلْوَلَدَ، وَاجْعَلْهُ يُسَـاعِـدُكَ فِي تَطْعِيمِ الرَّشَّاشِ بِشَرِيطِ الرَّصَاص.

فَـابْتَسَمَ الرَّقِيبُ (بْرُونْـزَاك) وَغَمَـزَ (سِيبَـانْكَـان) فِي تَوَاطُؤٍ :

ـ نَفْس الدَّوْرِ الذِي ذَهَبَ فِيهِ أَبُوهُ !

فَضَحِكَ (سِيبَانْكَان)، وَقَالَ :

ـ مَنْ شَابَهَ أَبَـاهُ فَمَـا ظَلَمَ ! وَلَكِنْ، عَلَيْـكَ أَنْ تَجْعَلَ

اَلْعَمَلِيَةَ تَبْدُو كَحَادِثٍ !

كَانَ (مِيخَـائِيل) يُفَكِّرُ فِيمَـا عَسَى أَنْ تَكُونَ اَلرِّسَـالَـةُ اَلتِّي تَسَلَّمَهَا (سِيبَانْكَان) حِينَ انْطَلَقَتْ صَفَّارَةُ الاِسْتِنْفَار...

وَسُرْعَـانَ مَـا دَبَّتِ اَلْحَرَكَـةُ السَّرِيعَـةُ فَـوْقَ اَلْخَـافِرَةِ، وَتَوَجَّهَ كُلُّ بَحَّارٍ إِلَى مَكَانِهِ بِسِلاَحِهِ، مُسْتَعِداً لِلْقِتَال...

وَلَبِسَ (مِيخَـائِيلُ) خُوذَتَـهُ بِسُرْعَـةٍ، وَحَمَـلَ بُنْـدُقِيَّتَـهُ، وَصَعدَ، فَإِذَا الرَّقِيبُ بْرُونْزَاك يُنَـادِيـهِ إِلَى مُؤَخِّرَةِ الْخَـافِرَةِ، حَيْثُ كَانَ مُمْسِكاً بِالرَّشَّاشِ الْكَبِيرِ، وَيُشِيرُ لَـهُ إِلَى شَرِيـطِ الرَّصَاصِ :

ـ أَمْسِكْ بِالشَّرِيطِ !

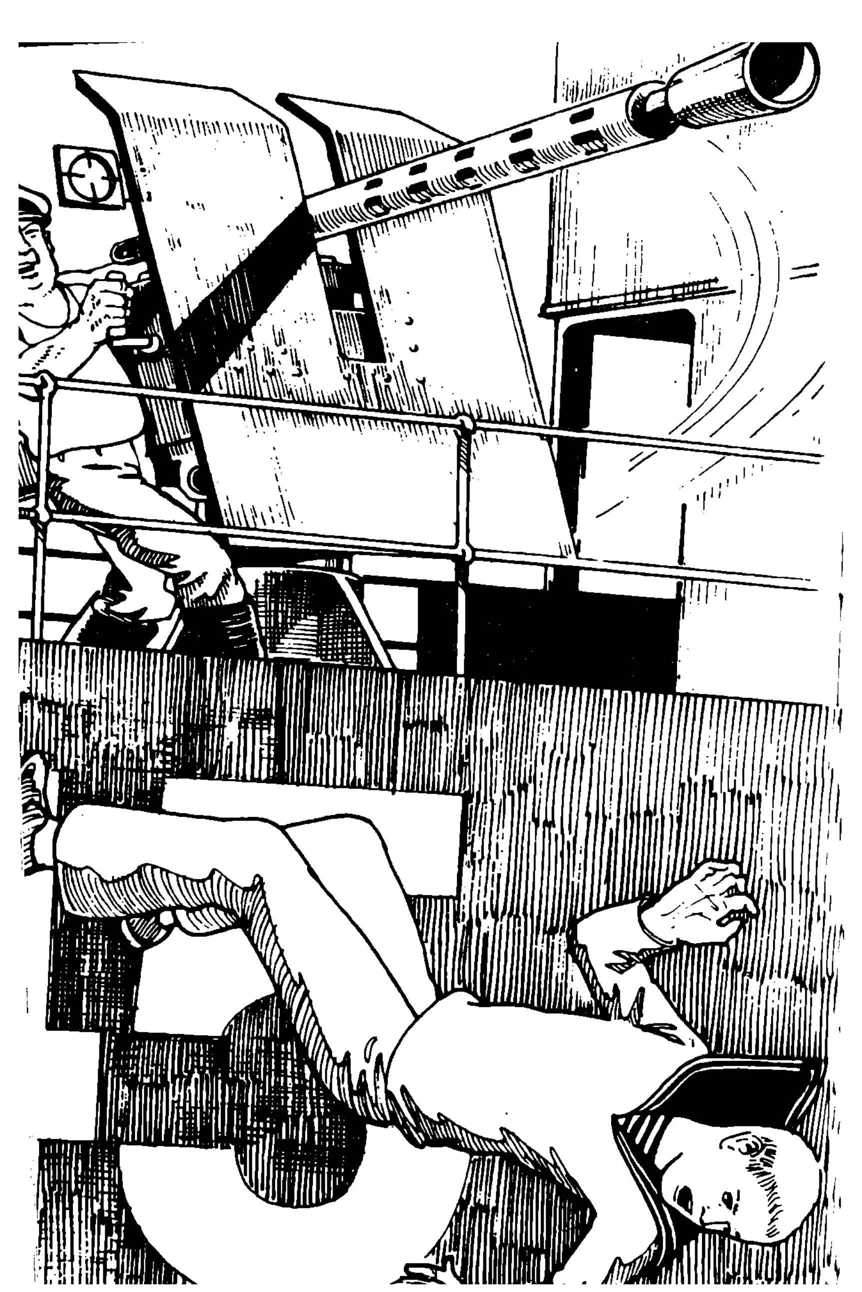
وَأَمْسَـكَ (مِيخَـائِيل) بِـالشَّرِيـطِ الثَّقِيـلِ، وَقَـدْ تَخَشَّبَ بَدَنُهُ مِنَ اَلتَّوَتُّرِ فِي اِنْتِظَارِ الْمَعْرَكَةِ... أَوَّلِ مَعْرَكَـةٍ حَقِيقِيَـةٍ سَيَخُوضُهَا كَبَحَّارٍ !

وَأَقْبَلَ عَلَيْهِم الزَّوْرَقُ بِأَضْوَائِـهِ الكَـاشِفَـةِ، مُوَجِّهَـةً إِلى

عُيُونِهِمْ، وَأَخَذَ يُطْلِقُ النَّارَ...

وَضَغَطَ الرَّقِيبُ (بْرُونْزَاك) الزِّنَادَ، فَتَطَايَرَتْ جِعَابُ النُّحَاسِ السَّاخِنَةُ، مِنْ فَوْقِ الرَّشَّاشِ الذِي كَانَ يُسَدِّدُه الرَّقِيبُ، بِقُوَّةٍ وَإِحْكَام، إِلَى الشَّبَحِ الضَّوْئِي الْمُهَاجِمِ !

وَفَجْأَةً، دَفَعَ (بْرُونْزَاك) (مِيخَائِيلَ) بِكَتِفِهِ، وَدَارَ بِالرَّشَّاشِ، فَضَرَبَهُ بِأُنْبُوبِهِ عَلَى صُدْغِهِ ضَرْبَةً شَدِيدَةً، سَقَطَ عَلَى إِثْرِهَا فَاقِدَ اَلْوَعْي... وَنَظَرَ الرَّقِيبُ حَوَالَيْهِ، فَوَجَدَ الْجَمِيعَ مُنْغَمِسِينَ فِي الْمَعْرَكَةِ، فَدَفَعَ اَلْفَتَى الْمُغْمَى عَلَيْهِ إِلَى اَلْمَاء...



- 7 -

وَنَـزَلَ خَبَرُ فُقْـدَانِ (مِيخَـائِيـل) فِي الْمَعْرَكَـةِ مَـعَ الْقراصِنَةِ الْوَهْمِيِينَ كَالصَّاعِقَةِ عَلَى الْقِيَادَةِ، وَقَاضِي الْمَحْكَمَةِ الْعسْكَرِيَةِ، وَخَالِ الْفَتَى الذِي لَمْ يَدْرِ كَيْفَ يُفَاتِحُ أُمَّهُ بِهَـذه الْفاجِعَةِ الجَدِيدَةِ !

وَقَالَ الْقَاضِي لأُمِّ الْفَتَى وَهُوَ يُعَزِّيهَا :

- إِنَّـهُ مَفْقُودٌ فَقَـط. وَمَعْنَى هَـذَا أَنَّـهُ قَـدْ يَكُونُ على قَيْـد الْحَيَـاةِ، أَسِيراً عِنْـدَ الْقَرَاصِنَـةِ، فِي انْتِظَـارِ مُقَـايَضَتِـه بِشَخْصٍ أَوْ مَالٍ - فَلاَ تَيْأَسِي... الرَّجَاءُ فِي اللَّهِ عَظِيمٌ.

وَلِخَـالِ (مِيخَـائِيـلَ) الْمُحَـامِي قَـالَ الْقَـاضِي، عِنْـدَ اجْتِمَاعِهِمَا فِي مَكْتَبِهِ بِالْمَحْكَمَةِ :

ـ أَمَلُنَا اَلْوَحِيـدُ هُوَ الْمَعْلُومَـاتُ التِي سَنَحْصُلُ عَلَيْهَـا مِن طَاقَمِ الْخَافِرَةِ، أَثْنَاءَ اَسْتِنْطَاقِهِمْ عَنِ الْحَادِثِ.

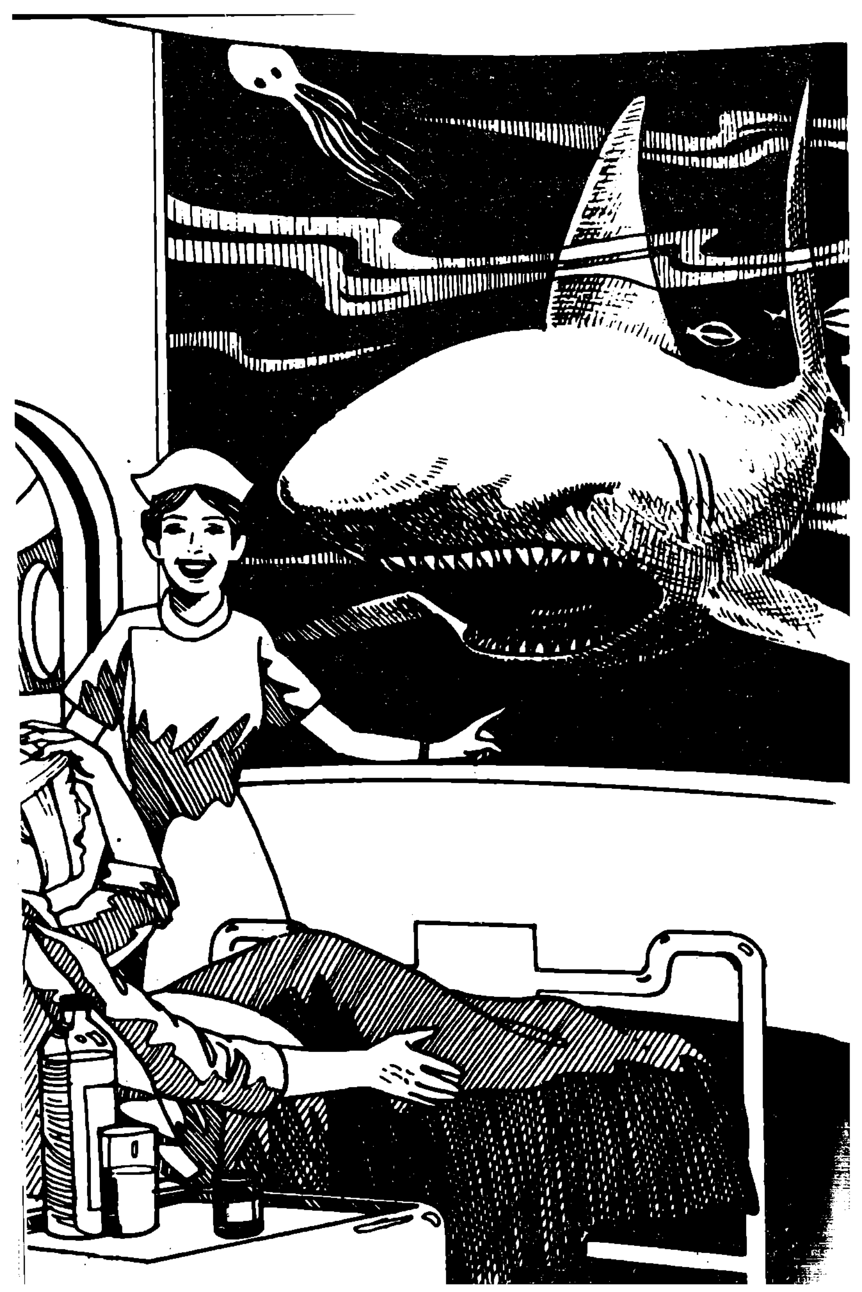
ـ إِذَا كَـانَ مَـوْقِفُهُمْ الْقَـادِمُ سَيَكُونُ كَمَـوْقِفِهِمْ مِن حَـادِثِ وَالِـدِهِ (نَـدِيم نُورْيَـاك)، فَـالأَمَلُ ضَعِيفٌ فِي إِدَانَـةِ الْجَـانِي... يَبْـدُو لِي أَنَّ هَـذَا اَلْخِنْزِيرَ (سِيبَـانْكَـان) قَـاتِـلٌ مُحْتَرِفٌ، وَيَعْرِفُ كَيْفَ يُخَطِّطُ اَلْجَرِيمَةَ الْكَامِلَةَ !

- 8 -

أَفَاقَ الشَّابُّ مِنْ غَيْبُوبَتِهِ دَاخِلَ غُرْفَـةٍ أَنِيقَـةٍ بِمَصَحَّـةٍ. أَحَسَّ بِأَلَمٍ خَفِيفٍ فِي جَانِبِ رَأْسِهِ الأَيْسَرِ. كَـانَتْ غِشَـاوَةُ النَّوْمِ الثَّقِيلِ الطَّوِيلِ تَزُولُ عَنْ عَيْنَيْهِ قَلِيلاً قَلِيلاً.

وَفَجْأَةً، أَدْرَكَ أَنَّ الْحَائِـطَ الأَزْرَقَ الْمُوَاجِـهَ لَـهُ، كَـانَ حَائِطاً مَائِياً، وَأَنَّ حَيَوَاناً مُفْتَرِساً كَـانَ يُحَـاوِلُ الانْقِضَـاضَ عَلَيْهِ. كَـانَ قِرْشـاً عِمْلاَقـاً، ذَا عَيْنَيْنِ مُتَوَحِّشَتَيْنِ، وَفَمٍ كَبِيرٍ، بِهِ صُفُوفٌ مُتَعَدِّدَةٌ مِنَ الأَسْنَانِ تُشْبِهُ الْمَنَاشِيرَ...

أَحَسَّ بِيَـدِ الرُّعْبِ الْبَـارِدَةِ تُمْسِـكُ قَلْبَـهُ وَأَحْشَـاءَهُ... وَحَاوَلَ أَنْ يَصْرُخَ، فَانْحَبَسَتِ الصَّرْخَةُ فِي حَلْقِهِ، كَأَنَّهَـا كُرَةٌ مِن حَدِيدٍ !



وَانْفَتَحَ بَابٌ عَنْ يَسَارِهِ بِقُوَّةٍ، وَدَخَلَتْ مُمَرِضَةٌ شَابَّةٌ، أَسْرَعَتْ نَحْوَهُ، وَأَمْسَكَتْ بِيَدِيهِ لِتُهَدِّئَهُ...

كَانَ ٱلشَّابُّ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْحَائِطِ الْمَائِي، وَالْوَحْشُ الْكَاسِرُ يُحَاوِلُ اخْتِرَاقَهُ، وَيَرْتَعِدُ بِشِدَّةٍ، فَضَغَطَتِ الْمُمَرِّضَةُ عَلَى زِرٍ إِلَى جَانِبِ السَّرِيرِ، فَتَحَوَّلَ ٱلْحَائِطُ الْمَائِي إِلَى مِرْآةٍ بِلَّوْرِيَةٍ صَافِيَةٍ، تَعْكِسُ صُورَتَهُ، وَهُوَ مُمْسِكٌ بِاللِّحَافِ فِي وَضْعٍ دِفَاعِيٍّ...

ـ لاَ تَخَفْ... لاَ تَخَفْ... لَقَدْ ذَهَبَ.

وَأَخَذَتِ الْمُمَرِّضَةُ الْحَسْنَاءُ تُهَدِّئُ مِن رَوْعِهِ، وَتُجَفِّفُ الْعَرَقَ ٱلْمُتَصَبِّبَ عَلَى وَجْهِهِ، بِقِطْعَةِ قُطْنٍ مُعَطَّرَةٍ.

وَأَعَادَ وُجُودُ الْمُمَرِّضَةِ الشَّابَّةِ الْجَمِيلَةِ، وَلَمَسَاتُهَا النَّاعِمَةُ، وَكَلِمَاتُهَا الرَّقِيقَةُ الْهُدُوءَ إِلَى نَفْسِ الشَّابِّ، وَانْتَظَمَتْ أَنْفَاسُهُ وَدَقَّاتُ قَلْبِهِ...

ـ أَيْنَ أَنَا ؟

ـ كَمَا تَرَى، فِي مَصَحَّةٍ.

ـ وَكَيْفَ وَصَلْتُ إِلَى هُنَا ؟

ـ وَقَعَ لَكَ حَادِثٌ...

ـ كَيْفَ ؟

وَوَضَعَتْ سَبَّابَتَهَا عَلَى شَفَتَيْهَا :

ـ حَـــاوِلْ أَنْ تَسْتَرِيــحَ الآن... سَيَـــأْتِي الطَّبِيبُ، وَيَشْرَحُ لَكَ كُلَّ شَيْءٍ.

وَرَأَتْهُ يَنْظُرُ إِلَى ٱلْمِرْآةِ بِقَلَقٍ، وَقَدْ عَـادَتْ إِلَيْـهِ صُورَةُ الْمَـارِدِ الْبَحْرِي الـذِي كَـانَ يُحَـاوِلُ اقْتِحَـامَ الْغُرْفَـةِ عَلَيْــهِ، فَقَالَتْ :

ـ لاَ تَقْلَـقْ... إِنَّ بَيْنَنَـا وَبَيْنَـهُ حَـائِطـاً مِنَ ٱلْفُـولاَذِ الشَّفَّافِ !

ـ الْفُولاَذُ الشَّفَّافُ ؟!

لَمْ يَكُنْ سَمِعَ بِـذَلِـكَ مِنْ قَبْـلُ، وَظَنَّهَـا فقـطْ تُرِيــدُ طَمْأَنَتَهُ...

وَأَخْرَجتْ منْ جَيْب صَدْرها جهازَ إرْسَال صغير. وتكلّمتْ فيه كلمتَيْن ورَقْماً، وأعادتْه إلى مكانه، ثُمّ رجعتْ إلى الشّاب، وأشارَتْ إلى اسْمها الْمُطَرّزِ فوْق نَهْدها الأيْسر، وقالتْ :

ـ أنا اسْمي «جُلّنار» وَأَنْتَ ما اسْمُكَ ؟

وَانْتَظرَتْ أنْ يَقُولَ لَهَا اسْمَهُ... وَلَكِنّهُ فُوجِئَ بالسُّؤال، وَأَخَذَ يُفكِّرُ في اسْمِه، وَيُحَاولُ أنْ يَتَذَكَّرَهُ دُونَ جَدْوَى. وَأَغْمَضَ عَيْنَيْه، وَوَضَعَ كَفَّهُ عَلَى جبينِه، مُحَاولاً أنْ يَبْحَثَ دَاخلَ ذَاكرَتِهِ عَنْ شَيْءٍ، فَلَمْ يَجدْ إلاّ الْفَرَاغَ !

وَأَحَسَّ برُعْبٍ مِن نَوْعٍ آخَرَ...

لَمْ يَكُنْ يَجْهَلُ اسْمَهُ فَقَطْ، بَلْ كَانَ يَجْهَلُ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَيَاتِهِ... لَقَدْ أَصْبَحَ إنْسَاناً بِدُونِ مَاضٍ. نَسِيَ كُلَّ شَيْءٍ، وَفَقَدَ ذَاكِرَتَهُ.

وَهَوَّنَتِ الْمُمَرِّضَةُ الشَّابَّةُ عَلَيْهِ مِحْنَتَهُ الْجَدِيدَةَ بِقَوْلِهَا :

ـ لا تقلقْ، إذا لمْ تستطعْ أنْ تتذكّر اسمك، أوْ شيْئا عن حيـاتـك هـذا يحْـدُثُ كثيرا للـذين يُصـابُـون في رؤوسهمْ.

وتــذكّر هُــو الألمَ الْخَفِيفَ فِي رَأْســه، وَنَظرَ إلَى الْمرْآة، فَإذا رأْسُهُ ملْفُوفٌ فِي ضِمَادَةٍ.

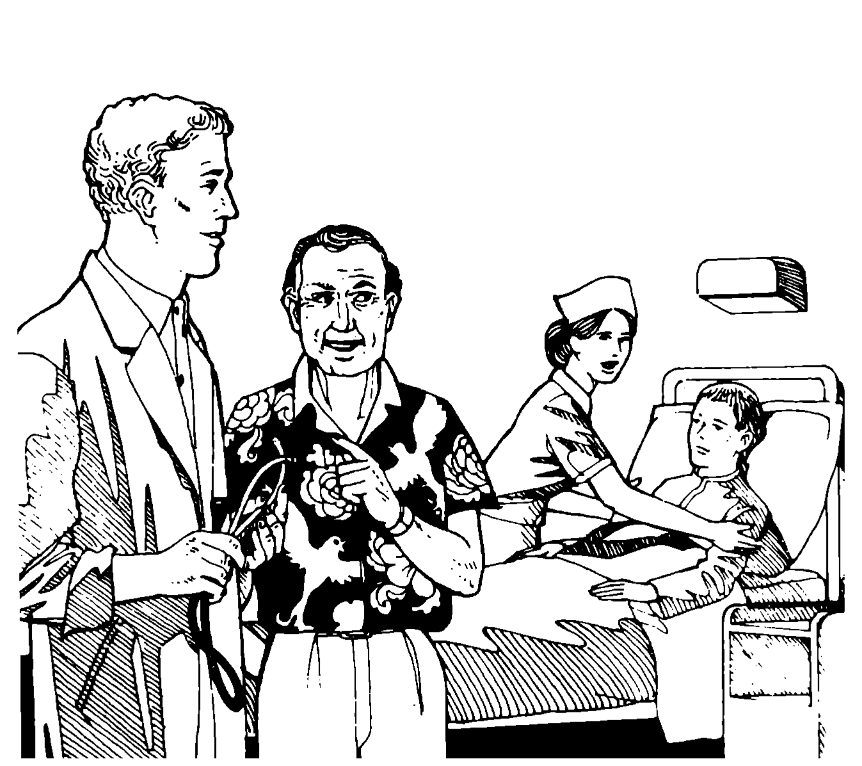
وَأَضَافَت الْمُمَرِّضَةُ : «حَالَمَا يَنْـدَمِلُ الْجُرْحُ الـدَّاخِلِي، سَتَعُودُ إلَيْكَ ذَاكِرَتُكَ».

- 9 -

وَفي هَـذهِ اللَّحْظَـةِ، انْفَتَحَتِ الْبَـابُ، وَدَخَلَ رَجُلاَن، أَحَدُهُمَا طَويلٌ نَحيفٌ، يَلْبَسُ بدْلَـةً طِبِّيَّـةً بَيْضَـاءَ، وَالثَّـاني أَصْغَرُ مِنْـهُ سِنّـاً وَحَجْمـاً، يَلْبَسُ بَنْطَلُـونـاً أَسْـوَدَ، وَقَمِيصـاً مُزَخْرَفاً بِالزُّهُورِ وَالطُّيُورِ الْمُلَوَّنَةِ.

قَـدَّمَتْ «جُلَّنَـار» الأَوَّلَ عَلَى أَنَّـهُ الـدُّكْتُـورُ رَشِيـدٌ، وَالثَّانِي الْبْرُوفِيسُور غَازِي نَصْرٌ، مُدِيرُ الْمُؤَسَّسَةِ.

وَتَقَدَّمَ الدُّكْتُورُ رَشِيد لِفَحْصِهِ مُبْتَسِماً، وَهُوَ يَسْأَلُـهُ عَنْ حَالِهِ. وَكَشَفَ الْغِطَاءَ عَنْ جُرْحِ رَأْسِهِ، وَحَرَكَ رَأْسَهُ رَاضِياً :



ـ الْجَرْحُ يندملُ بسُرْعَةٍ، قَرِيباً تُغَادِرُ السَّرِيرَ.

وكان الْبْروفيسُورْ غَازي نَصْر يَنْظُرُ إِلَى لَوْحِ حَالَةِ الْمريض، فعلّقهُ واتَّجهَ إِلَى الشَّابِّ :

ـ ما اسْمُك ؟

فأجابت الْمُمَرضَةُ :

ـ إِنَّهُ لا يتذكَّرْ... فُقْدَانُ ذاكرَةٍ تَامٌّ !

فزمّ شفتيْه :

ـ لابُدَّ أَنَّهَا الضَّرْبَة...

ثُمَّ توجَّهَ بِالْكَلاَمِ إِلَى الْمَرِيضِ :

ـ لا بُدَّ أَنْ نُخْرِجَكَ بِسُرْعَةٍ مِنْ حَالَةِ نِسْيَانِكَ، وَنُعِيدَ إِلَيْك ذاكرتك. حَالَتُكَ لاَ تَحْتَمِلُ انْتِظَارَ الشِّفَاءِ الطّبيعِي...

ظهر الْقَلَقُ عَلَى وَجْهِ الشَّابِّ :

ـ لماذا يَا سَيِّدِي ؟

ـ أَنْتَ غَاضِبٌ جِداً... يَظْهَرُ ذَلِكَ في أَحْلاَمِكَ

ولا بُدّ مِنْ أنْ تعُودَ إِلَيْكَ ذَاكِرَتُكَ لِنَعْثُرَ عَلَى سَبَب غَضَبِكَ.
وَإلاَّ قَتَلَكَ ذَلِكَ الْغَضَبُ إذَا بَقِي مَكْبُوتاً فِي لاَ شُعُورِكَ !
لِذَلِكَ عَلَيكَ أَنْ تُسَاعِدَنَا عَلَى اسْتِرْجَاعِ ذَاكِرَتِكَ.

ـ وَلَكِنَ كَيْفَ ؟

ـ بِالْمُحَاوَلَةِ، وَعَدَمِ الاِسْتِسْلاَمِ إِلَى ٱلْيَأْسِ... فَهُمَا ضَرُورِيَانِ لِنَجَاحِ آلَةِ إِنْعَاشِ الذَّاكِرَةِ.

وَانْتَهَى ٱلدُّكْتُورُ رَشِيد مِنْ فَحْصِهِ، وَتَنَاوَلَ سجلَّه، وَكَتَبَ عَلَيْهِ شَيْئاً، وَهُوَ يَقُولُ :

ـ فِيمَا عَدَا ذَاكِرَتَكَ، أَنْتَ فِي صِحَّةٍ جَيِّدَةٍ يَا... مَاذَا سَنُسَمِّيكَ ؟

فَتَطَوَّعَ البْرُوفِيسُور غَازِي :

ـ نُسَمِّيهِ (يَاسِين)... فَهُوَ ٱسْمٌ يَحْتَوِي عَلَى (س) الْمَجْهُول...

وابْتَسَمَ لِلشَّابِّ المَرِيضِ مُشَجِّعاً، وَخَرَجَ الرَّجُلاَنِ...
وَدَخَلَتْ بَعْدَهُمَا مُمَرِّضَةٌ تَدْفَعُ أَمَامَهَا صِينِيَةَ طَعَامٍ.

- 10 -

وَفِي اليَوْمِ التَّالِي، أَخَذَتْهُ الْمُمَرِّضَةُ إِلَى غُرْفَةِ الانْعَاشِ، حَيْثُ أَجْلَسَتْهُ عَلَى كُرْسِيٍّ وَثِيرٍ، أَمَامَ لَوْحٍ زُجَاجِي أَبْيَضَ، وَوَضَعَتْ عَلَى رَأْسِهِ خُوذَةً مِنَ مَعْدِنٍ خَفِيفٍ، تَتَّصِلُ لاَسِلْكِياً بِكُومْبِيُوتِر... وَقَالَتْ لَهُ، وَهِيَ تُوَجِّهُهُ نَحْوَ الشَّاشَةِ الزُّجَاجِيَةِ :

ـ عَلَيْكَ الآنَ أَنْ تَسْتَرْخِي تَمَاماً وَتَرْتَاحَ، وَتَنْظُرَ إِلَى مَا سَيَظْهَر عَلَى ذَلِكَ اللَّوْحِ...

وَضَغَطَتْ عَلَى زِرٍّ، فَأَخَذَتْ تَظْهَرُ صُوَرُ مَنَاظِرَ طَبِيعِيَةٍ، وَحَيَوَانَاتٍ، ثُمَّ مَنْظَرُ الْبَحْرِ مِنَ الشَّاطِئِ، وَانْبَعَثَتْ

منْ جوانب الْغُرْفة موسيقى جميلةٌ، وخفت النُّور... ومن جانبي الْخوذة، جاءه صوْتُ أُنْثى يسْرُدُ بعْض أسْماء الأشْخاص، حتّى توقّف عنْد (ميخائيل) مرّةً، ثُمّ عنْد شيريفيان، ثُمّ أخذ يسْرُدُ أسْماء الْمُدُن، ودخل في أسْماء الشّوارع... ثُمّ انْتقل إلى الْمِهن، والْمدارس، والأسْلحة...

وبعْد مُدّةٍ، لمْ يدْر طُولها، عاد النُّورُ إلى قُوّته، وتلاشت الصُّورُ على اللّوْح اللامع، والصّوْتُ النّاعمُ في أُذُنيْه...

ودخلتْ سيِّدةٌ أكْبرُ سنّاً من جلنار قدّمتْها إليْه هذه قائلةً :

ـ هذِهِ الدُّكْتُورةُ (نبيهةُ) خبيرةُ التّحْليلِ النّفْسِي.

فابْتسمتْ هذهِ لِـ «ياسِينٍ» منْ وراء نظّارتِها، وتناولتْ شريطاً كان يخْرُجُ مِن صدْرِ الكُومْبيُوترْ، وأخذتْ تفْحصُهُ بعِنايةٍ. وفجْأةً، نادتْ :

ـ ميخَائيل أَوْ شيريفيان ؟ أَيُّهُمَا ٱسْمُك ؟

فَالْتَفت الشَّابُ إِلَيْهَا مُنْدهِشاً، وَقَالَ :

ـ لاَ أَدْري... وَلَكِنَّهُمَا ٱسْمَان مَأْلُوفَان عِنْدِي؛ كَيْفَ وَصَلْت إِلَيْهِمَا ؟

ـ أَنْتَ الَّذِي دَلَلْتَني عَلَيْهِمَا. عَقْلُكَ البَاطِنُ... اسْتِجَابَتُك الخَاصَّةُ عَن طَرِيقِ ارْتِفَاعِ نَبْضِكَ لِسَمَاعِهِمَا. وَأَنْتَ من مَكَانٍ اسْمُهُ (الغَرْبِيَة): هَلْ تَتَذَكَّرُ شَيْئاً عَن (الغَرْبيَة) ؟

ـ أَتَذَكَّرُ الاسْمَ، فَقَطُ.

ـ لاَ بَأْس ! سَنُسَاعِدُكَ عَلَى تَذَكُّرِ الْبَاقِي. أَنْتَ حَاصِلٌ عَلَى شَهَادَةِ الثَّانَوِي مِنَ القِّسْمِ العِلْمِي. فَلِمَاذَا لَمْ تَلْتَحِقْ بِالْجَامِعَة ؟

ـ لاَ أَدْري...

ـ دَرَجَاتُكَ جَيِّدَةٌ ـ وَلَكِنَّكَ الْتَحَقْتَ بِالْبَحْرِيَةِ ـ بِسِلاَحِ خَفْرِ الشَّوَاطِئِ ـ هَلْ تَتَذَكَّرُ شَيْئاً مِنْ ذَلِك ؟

فَفَكَّرَ ميخـائيـل قَلِيلاً، وَحَرَّكَ رَأْسَهُ بِالنَّفْيِ : «لاَ».

فَأَعَادَت الدُّكْتُورَةُ (نَبيهَة) الشَّرِيطَ إِلَى مَكَانِهِ :

- يَكْفِي هَـذَا اليَـوْمَ. سَتَـأْخُـذُكَ (جلنـار) إِلَى مَلْعَب كُرَة المِضْرَبِ لِتَتَمَرَّنَ قَلِيلاً. الرِّيَاضَةُ تُسَـاعِـدُ عَلَى جَرَيَـانِ الدَّمِ فِي خَلاَيَا المُخ، وَإِنْعَاشِ الذَّاكِرَةِ. مَعَ السَّلاَمَةِ !

وَخَرَجَتْ.

- 11 -

جَاءَتْ بِهِ (جلنار) إلَى مَلْعَبِ «تِنِس» مُغَطًّى بِسَقْفٍ أَزْرَقَ شَفَّافٍ، فَغَيَّرَ مَلاَبِسَهُ، وَأَخَذَ مِضْرَباً، وَدَخَلَ السَّاحَةَ، فَإِذَا فَتَاةٌ سَمْرَاءُ فِي مَلاَبِسَ التِّنِسِ، تَلْعَبُ وَحْدَهَا ضِدَّ الْحَائِطِ. كَانَتْ فِي حَوَالَي السَّابِعَةَ عَشْرَةَ، جَمِيلَةَ الْوَجْهِ، ذَاتَ عَيْنَيْنِ فِرْعَوْنِيَّتَيْنِ وَاسِعَتَيْنِ.

وَمَا كَادَ مِيخَائِيل يَدْخُلُ السَّاحَةَ حَتَّى جَاءَتْ تَجْرِي نَحْوَهُ وَهِيَ تَلْهَثُ :

- هَلْ أَنْتَ وَحْدَكَ ؟

- نَعَمْ.

- هَلْ نَلْعَبُ مَعاً ؟

فحَرَّكَ رَأْسَهُ مُوافِقاً. وَمَدَّتْ هِيَ يَدَهَا إِلَيْهِ مُصَافِحَةً :

- اسْمِي «رَنْدَة رِيم» - وَأَنْتَ ؟...

- مِيخَائِيل...

وَسَحَبْتُه الْفَتَاةُ مِن يَدِهِ إِلَى السَّاحَةِ، وَقَابَلَتْهُ، وَبَدَآ يلْعبَان...

وَبَعْدَ بِضْع دَقَائِقَ مِنَ التَّبَادُلِ السَّرِيع الصَّامِتِ، صاحَتْ (رَنْدَة رِيم) فِي إِعْجَابٍ :

- ضَرَبَاتُكَ قَوِيَّةٌ، وَمُتْقَنَةٌ، هَلْ أَنْتَ مُحْتَرِفٌ ؟

- لاَ أَدْرِي.

وَتَلَقَّفَت الْكُرَةَ بِيَدِهَا بَدَل أَنْ تَضْرِبَهَا، وَقَدْ انْدَهَشَتْ لِجَوَابِهِ :

- كَيْفَ لاَ تَدْرِي ؟!

- أَنَا آسِف: نَسِيتُ أَنْ أَقُولَ لَكِ إِنِّي فَقَدْتُ الذَّاكِرَةَ مِن جَرَّاءِ هَذِهِ الضَّرْبَةِ...

وَأَشَارَ إِلَى رَأْسِهِ المَلْفُوفِ بِشَرِيطٍ خَفِيفٍ، وَأَضَافَ :

ـ وَلَكِنَّنِي بَدَأْتُ أَتَذَكَّرُ، وَأَنَا أَلْعَبُ مَعَكِ الآنَ، إِنَّنِي كُنْتُ «صَبِي مَلْعَب»، أَجْمَعُ الكُرَاتِ لِلاَّعِبِين، وَأُلاَعِبُ الْفُرَادَى...

وَلَمْ تَهْتَمَّ الفَتَاةُ لِمَا كَانَ يَقُولُه لَهَا، بِقَدْرِمَا اهْتَمَّتْ لِفُقْدَانِهِ الذَّاكِرَةَ. فَاقْتَرَبَتْ مِنَ الشَّبَكَةِ الفَاصِلَةِ، وَاتَّكَأَتْ عَلَيْهَا :

ـ سَمِعْتُ كَثِيراً بِفَاقِدِي الذَّاكِرَة، وَلَكِنَّنِي لَمْ أُقَابِلْ وَاحِداً مِنْهُم أَبَداً. كَيْفَ تُحِسُّ وَأَنْتَ لاَ تَعْرِفُ شَيْئاً عَنِ نَفْسِكَ ؟

ـ لاَ أَدْرِي. أَحْيَاناً أُحِسُّ بِالْحَيْرَةِ، وَأَحْيَاناً بِالْفَرَاغِ.

ـ مَاذَا سَتَفْعَلُ إِذَا لَمْ تَعُدْ إِلَيْكَ ذَاكِرَتُك ؟

ـ ذَاكِرَتِي بَدَأَتْ تَعُودُ. الطَّبِيبُ قَالَ لِي إِنَّهَا سَتَعُودُ تَمَاماً، بِمُجَرَّدِ شِفَاء هَذِهِ الكُدْمَةِ التِي بِرَأْسِي. ثُمَّ إِنَّ هُنَاكَ آلَةً خَاصَّةً بِإِنْعَاشِ الذَّاكِرَةِ... عَجِيبَة ! اسْتَطَاعُوا مِن خِلاَلِهَا

أنْ يعْرفوا الْكَثيرَ عنّي.

- أراهنُ أنّكَ لَوْ كُنْت في بَلَدك، وَفي الْمكان الذي تعيشُ فيه، لعادتْ إليْك ذاكرتُك في الْحال.

- ولكن أيْن نَحْنُ ؟

- ألمْ يقولوا لك ؟!

وأمْسكتْ بيده وقادتْهُ إلى حيْثُ توجدُ ثلاّجةٌ، فتحتْها، وأخْرجتْ زُجاجتيْن منْ مشْروب لا يَعرفُهُ، فتحتْهما، وناولتْهُ واحدةً، وهي تتحدّثُ بلهْجَة مصْريّة، وتنْظرُ حواليْها خشْية أنْ يسْمع أحدٌ :

- نحْنُ، يا سيّدي، في مدينة علْمية سرّية، لا يعْرفُها إلاّ الْقليلُون اسْمها مدينةُ الأعْماق، أو (اليونسية)، نسْبة إلى النّبي (يونُس) الذي ابْتلعهُ الْحوتُ... فنحْنُ إذنْ في بطْن حُوت !

وقهْقهتْ عاليا، فقال ميخائيل :

- أنْت تمْزحين !

فقالتْ، وَهي مَا تَزالُ تَضْحَكُ :

ـ أبـدا. واللّـه العظيم ! إذا لَمْ تُصَـدِّقْني فحـاول الْخرُوج منْها: حـاولْ أنْ تفْتحَ نـافذَةً على الطّبيعـة. أوْ أنْ ترى السّماء ! إنّنـا تحْت الْمـاء بحْوالي خمْسين مترْاً،على الأقلّ !

ونهضت من مكـانهـا، وتنـاولتْ من جَيْب صـدْرهـا قلما، أخذتْ ترْسُمُ به على الأرْض نجْماً خُماسياً :

ـ هذا شكْلُ الْمدينـة... وهي تقعُ على سفْح الْجُرْف الْقارّي، بمكان على الْمحيط. أخذ الْعلماءُ تصْميمها من نجْم البحْر الْمعْروف. وهي تتزوّدُ بكُلّ ما تحْتاجُ إليْه من طاقة، وأوكْسيجين ومواد خامٍ من الْبحْر..:

فتناول (ميخائيل) المضْرب، وابْتعد عنْها نحْو مكـانـه في الْملْعب :

ـ تعاليْ نلْعب التنس ! خيالُـك واسعٌ جـدّا... لا بـد



أَنَّكِ تَقْرَئِينَ كَثِيراً مِنْ قِصَصٍ الْخَيَالِ الْعِلْمِي، أَوْ تُشَاهِدِين أَفْلاَمَهُ !

وَبَانَ عَلَيْهَا التَّأَثُّرُ لِعَدَمِ تِصْدِيقِهِ إِيَّاهَا، وَلَكِنَّ حُزْنَهَا لَمْ يَطُلْ، فَتَنَاوَلَتْ، هِيَ الأُخْرَى، مِضْرَبَهَا، وَأَخَذَتْ مَكَانَهَا صَائِحَةً فِيهِ :

- بِمَاذَا تُرَاهِنُ عَلَى مَا أَقُولُ ؟

- أُرَاهِنُ بِالتَّنَازُلِ لَكِ عَنِ الانْتِصَارِ الذي سَأَنْتَصِرُهُ عَلَيْكِ الآنَ !

وَأَعَادَ إِلَيْهَا ذَلِكَ مَرَحَهَا فَقَهْقَهَتْ قَائِلَةً :

- يَا لَكَ مِن مَغْرُورٍ ! سَنَرَى مَنْ سَيَنْتَصِرُ !

وَضَرَبَتِ الكُرَةَ نَحْوَه بِعُنْفٍ، فَرَدَّهَا بِقُوَّة، وَحَمِيَت المُبَارَاة...

- 12 -

وَبيْنما هُما كذلكَ، إذْ ترامى إليْهما هـديرٌ من بعِيـد، وَتـوقّفَـا عن اللَّعب يُنْصتـان إلى مَصْـدره، فـإذا بـه يقْتربُ بسُرْعةٍ منْ فوْقِ المَلْعب، كَـانَ شبيهـاً بهـدير مُحرّك بَـاخرة ضَخْمَةٍ تقْتَربُ من غوّاصةٍ.

وَأُصيبَ (ميخَـــائيـــل) بفــزَع، فرَمَى المضْربَ، وهمّ بالْفِرَار... وَأدْرَكَتْ (رَنْـدَة ريم) فزَعـه، فَـأَسْرَعَتْ لِتَقفَ إلَى جَانبِه، وَتُمْسكَ بيَدِه :

ـ لاَ تخَفْ ! هَذهِ بَاخِرَةٌ فَقَـط... إنَّهَـا تَمُرُّ فوْقنـا... فوْقَ مَدِينَةِ الأَعْمَاقِ. هَلْ تُصَدِّقُ الآنَ ؟

وَاشْتَدَّ هَدِيرُ المُحَرِّكَاتِ الْهَائِلُ، فَحَالَ دُونَ سَمَاعِهِ كَلاَمِهَا...

وَفِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ، أَظْلَمَ المَكَانُ... وَرَفَعَ (مِيخَائِيلُ) نَظَرَهُ إِلَى السَّقْفِ، وَهُوَ يَتَوَقَّعُ أَنْ يَهْوِيَ فَوْقَهُمَا، فَإِذَا زُرْقَتُهُ الصَّافِيَةُ تَتَحَوَّلُ إِلَى سَوَادٍ!

وَانْطَلَقَتْ صَفَّارَاتُ الإِنْذَارِ، وَأَوْمَضَتْ لاَفِتَاتٌ عَلَى الجُدْرَانِ مَكْتُوبٌ عَلَيْهَا بِالأَحْمَرِ: «تَلْوِيثٌ تَلْوِيثٌ».

أَمْسَكَتْ (زَنْدَةُ رِيمْ) بِيَدِ (مِيخَائِيلَ)، وَأَخْرَجَتْهُ مِنَ الْمَلْعَبِ بِسُرْعَةٍ، وَهِيَ تَصِيحُ فِي أُذُنِهِ:

ـ تَعَالَ مَعِي، سَتَرَى شَيْئاً لَمْ تَرَهُ مِن قَبْل...

وَكَانَ هَدِيرُ البَاخِرَةِ فِي أَوْجِهِ، فَأَخَذَ المَمَرُّ الطَّوِيلُ يَهْتَزُّ بِهِمَا اهْتِزَازاً عَنِيفاً، وَهُمَا يَشُقَّانِ طَرِيقَهُمَا بَيْنَ جَمَاعَةٍ مِنَ الشُّبَّانِ، ذُكُوراً وَإِنَاثاً، يَرْكُضُونَ فِي الاتِّجَاهِ المُعَاكِسِ، يَلْبَسُونَ بِدَلاً رَسْمِيَّةً مُوَحَّدَةً بَيْضَاءَ، وَيَضَعُونَ الخُوذَاتِ عَلَى رُؤُوسِهِم.

وفتحتْ بـاب غُرْفـةٍ، وأدْخلتْـهُ وأقْفلتْهـا خلفهُمـا،
وتوجّهتْ نحْو مفاتيح شاشةٍ على الْحـائـط فـأشْعلتْهـا، وهي
تشْرحُ لهُ وتلْهثُ :

- هذه ناقلةُ بتْرُول.

وَظَهَرتْ الباخرةُ علَى الشَّاشَة مُصوَّرةً من تحْت الْمَاء.
ظَهَر بطْنُهـا الهَـائلُ كَحُوتٍ عمْلاقٍ، وَفي مُـؤَخرَتِهـا ثـلاثُ
مَرَاوحَ ضَخْمَةٍ تَدُورُ بسُرْعَةٍ. وَمن جَانبَيْهَا يَنْزلُ سَائلٌ نَفْطي
أَسْوَد. قَالَتْ (رَنْدَةُ ريمُ) :

- رُبَّـانُ هَـذهِ البَـاخِرَة رَجُـلٌ جَـاهِـلٌ وَمُجْرِمٌ... إنَّـهُ
يَغْسِـلَ خَزَائِنَ بَاخِرَتِه مِن بَقَايَا النَّفْـطِ الْخَـامِ، وَيُفرِغُـهُ فِي
هذِهِ المنْطَقَةِ النَّظِيفَةِ الْجَمِيلَةِ، الْغَنِيَةِ بالأَسْمَاكِ والنَّبـاتَـاتِ
البَحْرِية.

وَقَطَّبَتْ جَبِينَهَا فِي غَضَبٍ :

ـ وَلَكِنِ انْتَظِرْ... سَيُعْطِيهِ رِجَالُنَا دَرْساً لَن يَنْسَاه !

وَظَهَرَ عَلَى اللَّوْحِ جَانِبُ البَاخِرَة، وَهِيَ مُتَوَجِّهَةٌ إِلَى الجَنُوب، وَمِن جَانِبَيْهَا يَنْصَبُّ سَائِلٌ خَاثِرٌ أَسْوَدُ فِي مَاءِ المُحِيطِ البِلَّورِي الصَّافِي...

- 13 -

انْطلَـقَ فِي أَعْقـاب البَـاخِرَةِ المُلَـوِّثَـةِ زَوْرَقٌ بُخَــارِي سَرِيعٌ، أَخذ يُطْلِقُ صفَّارَتَهُ، حتَّى اسْتَوَى مَعَ البَاخِرَةِ.

وأطل مِن فَوْقِ حَائِطِهَا العَالِي رُبَّانُهَـا المُلْتَحِي، وَفِي يده بُوقٌ وَجَّهَهُ نحْوَ الزَّوْرَقِ وَصَاح :

ـ مَاذَا تُرِيدُون ؟

فَأَجَابَهُ رُبَّانُ الزَّوْرَقِ :

ـ نَرْجُـوكُم أَنْ تَكُفُّـوا عَن صَبِّ النَّفْـطِ فِي الْمَــاءِ... أَنْتُمْ تُلَوِّثُون المِنْطَقَةَ.

ـ أَنَا لاَبُدَّ أَنْ أَغْسِـلَ خَزَّانَاتِي !

ـ أنْت تَعْرفُ أنَّهُ بإمْكَانكُم غَسْلُهَا دُون إراقَة النَّفْط في الْبحْر... بَلْ قَدْ تَكْسبُونَ من جَمْعه في بَراميل مبْلغاً لاَبَأْس به !

ـ لاَ وَقْتَ لَنَا لِذَلِكَ، وَالْبَحْرُ وَاسِعٌ...

ـ أَنْتُمْ تَقْتُلُونَ الأَحْيَاءَ المَائِيَةَ... تَقْضُونَ عَلَى مَلاَيِير بيضِ الأَسْمَاكِ ! تَقْضُونَ عَلَى مَصْدَرِ رِزْقِ عَدَدٍ مِن أَبْنَاءِ وَطَنِكُم الذِينَ يَصْطَادُونَ فِي هَذهِ المَنَاطِقِ، وَبمَجْهُودٍ بَسِيطٍ يُمْكِنُكم تَفَادِي هَذهِ الْمَأْسَاة !

فَبَانَ الضِّيْقُ عَلَى الرُّبَّانِ، وَأَرَادَ أَنْ يُنْهِيَ اَلْحَدِيثَ :

ـ آسِف ! لاَ وَقْتَ لِي لِهَذَا اَلْهُرَاءِ ! وَمَن أَنْتُم عَلَى أَيِّ حَالٍ ؟ أَنْتُمْ لَسْتُمْ مِن حُرَّاسِ شَوَاطِئِ الدَّوْلَةِ، فَمَاذَا يَهُمُّكُم ؟

ـ نَحْنُ مِنْ «جَمْعِيَةِ أَصْدِقَاءِ الْبَحْرِ، وَالْمُحَافَظَةِ عَلَى اَلْبِيئَةِ».

فقهقه الرَّبَانَ مَتهكما :

ـ إذنْ، قدمَوا بنا شكْوى إلى «هيْأة الأُمم المُتَّحِـدَة»، أوْ «محْكمة العدْل الدَوْلية» !

فصاح فيه قائدَ الزَوْرق الْبَخاري بحَزْم :

ـ مع احْترامي،يا سيـدي، إذَا لَمْ تَقْفِـلْ صِمَامَـاتِ مجاريك، وتكفَ عن التَلويث، حَصَلَ مَا لاَ تُحْمَدُ عُقْبَاه !

ـ ماذا ستفعلون ؟

ـ سَنُضْطَرّ إلى القَبْض عَلَيــك، وَتَقْــديمــك إلى ٱلعَدَالَة.

فَقَهْقَهَ الرُّبَّـانُ الأَجْلَفُ حتَّى رَدَّدَتْ جُـدْرَانُ بَـاخِرَتِـهِ الشَّاهقَة أَصْدَاءَ صَوْته :

ـ تَعَالَوْا إِذَنْ، وَاقْبِضُوا عَليَّ ! مَاذَا تَنْتَظِرُون ؟!

ـ لِكَيْ نَقْبِضَ عَلَيْكَ، لاَبُدَّ مِن أَن تَتَوَقَّفَ !

فَزَادَتْ قَهْقَهَةُ الرُّبان ارْتِفَاعاً :

ـ أَنْتَ وَلَدٌ مُسلٍ ! مَنْ عَلَّمَكَ مِثْلَ هَذَا الكَلاَمِ ؟!

وَرفَعَ قُبّعَتَهُ، ولَوَّح بها في تحيَة تهْريجية ساخرة :

ـ السَّمْعَ والطَّاعة ! سأتوقفَ حالا، وأفْرشَ لكم البساطَ الأحْمَرَ لتَأْتُوا للْقبْض عليَّ !

وَكانَ بَحَّارتُهُ قد اجْتمعُوا على جانب الْباخرة، يُطِلُّونَ عَلَى الزَّوْرَقِ من أعْلى، ويتضاحكُون، فصاح الرُّبان بمُساعِدِهِ فِي بُرْجِ القِيَادَة :

ـ سُرْعَةً كَامِلَةً !

وَانْخَرَطَ فِي قَهْقَهَةٍ مُزْعِجَةٍ، وهَمَّ بالانْصراف.

وَلَكِنَّ صَوْتَ قَائِدِ الزَّوْرَقِ أَسْكَتَهُ، وَأَعادَهُ إِلى الْحافَّة. صَاحَ فِيهِ :

ـ لَمْ يَبْقَ لَكَ إلاَّ مِيلٌ بَحْرِيٌّ وَاحِدٌ، ويَعْترضُكَ حبْلٌ طَوِيلٌ فِي جَانِبَيْهِ لُغْمَان عَائِمَان شَدِيدَا الانْفِجار ! إذَا حَاوَلْتَ اخْتِرَاقَهُ، انْطَبَقَ عَلَى جَانِبَيْ بَاخِرَتِكَ كَفكَّيْ تِنِّين يَنْفُثُ النَّارَ !

وَنَظَرَ إِلَى سَاعَتِهِ، وَأَضَافَ :

ـ وبسُرْعَتِكَ الْحالِيَة، ستَصِلُ نُقْطَةَ الصِّفْرِ داخل أرْبعِ دَقَائِقَ، وَخَمْسٍ وَثلاثِينَ ثَانِيَةً !

كَانَ مُساعِدُ الرَّبَّان قَد سَمِعَ التَّهْدِيدَ، فَأَمْسَكَ بمَقْبِض السُّرْعَةِ، وَوَقَفَ يَنْتَظِرُ أَوامِرَ الرَّبَّان، فَأَشَارَ لَهُ هَذَا لِيُخَفِّضَ السُّرْعَةَ، وَصَاحَ فِي الْبُوقِ بِقَائِدِ الزَّوْرَقِ :

ـ إِذَا كَان تَحَدِّياً كَاذِباً فَالوَيْلُ لَكَ !

وَتَنَاوَلَ مِنْظَارَهُ المُقَرِّبَ، وَمَسَحَ بِهِ سَطْحَ المَاءِ أَمَامَ البَاخِرَةِ الَّتِي كَفَّ رَفَّاصُهَا عَنِ الدَّوَرَان، وَبَقِيَتْ تَتَقَدَّمُ بانطِلاقِهَا الذَّاتِي.

وَبَعْدَ لَحَظَاتٍ مُتَوَتِّرَةٍ، لاَحَظَ شَيْئاً فَصَاحَ :

ـ لُغْمٌ عَائِمٌ عَلَى بُعْدِ رُبُعِ مِيلٍ... لاَ وَقْتَ للتَّرَاجُعِ... هَاتُوا الْبَنَادِقَ وَفَجِّرُوهُ...

وَفِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ، اسْتَغَل قَائِدُ الزَّوْرَقِ البُخَارِي انْشِغَالَ الرُّبَان، فاقْتَرَبَ مِن مُؤَخَّرَةِ البَاخِرَة، حَيْثُ نَزَلَ إِلَى المَاءِ سِتَّةٌ مِن الرِّجَال الضَّفَادِع، يَتَحَزَّمُونَ بِحِبَالٍ مَشْدُودَةٍ

إِلَى قُفْلٍ فُولاَذِي، مُعَلَّقٍ بِجَانِبِ الزَّوْرَقِ. وَسَبَحُوا تَحْتَ الْمَاءِ، حَتَى وَصَلُوا إِلى مِرْوَحَةِ البَاخِرَة الضَّخْمَة، فَجَذَبُوا الْحِبَالَ وَجَرُّوا القُفْلَ الفُولاَذِيَ الضَّخْمَ، فَفَتَحُوهُ، وَرَكَّبُوهُ عَلَى أَحَدِ أَجْنِحَةِ المِرْوَحَةِ الرَّئِيسِيَةِ، وَوَصَلُوه بِإِطَارِهَا، وَعَادُوا بِسُرْعَةٍ، خَشْيَةَ أَن يَشْتَغِلَ المُحَرِكُ وَيَطْحَنَهُمْ...

وَمِن فَوْقِ البَاخِرَةِ، وَقَفَ رَامِيان مُدَرَّبَان، فَأَطْلَقَا النَارَ عَلَى اللُّغْمَيْنِ، وَفَجَّرَاهُمَا. وَعَادَ القَبْطَانُ سَعِيداً بِانتصَارِهِ، فَأَخَذَ اَلْبُوقَ، وَصَاحَ بِقَائِدِ الزَّوْرَقِ ـ :

ـ وَتُسَمِّي هَذَيْنِ لُغْمَيْنِ ؟! إِنَّهُمَا فِي قُوَّةِ مَحَارِيقِ مِهْرَجَانَاتِ رَأْسِ السَنَةِ التَّي يَلْعَبُ بِهَا الأَطْفَالُ !

ـ إِنَّهُمَا مُجَرَّدُ إِنْذَارٍ ! الأَلْغَامُ الحَقِيقِيَّةُ مَا تَزَالُ أَمَامَكَ !

وَبُهِتَ الرُّبَّانُ الأَهْوَجُ، وَأَمْسَكَ بِمِنْظَارِهِ الْمُقرِّبِ لِيَنْظُرَ، فَعَاجَلَهُ قَائِدُ الزَّوْرَقِ :

ـ عَلَى أَيِّ حَالٍ، لَن تَسْتَطِيعَ الإِقْتِرَابَ مِنْهَا الآنَ،

حتَّى وَلَوْ أَرَدْتَ ذَلِكَ !

ـ مَاذَا تَعْني ؟!

ـ أُحذِّرُكَ من تنْشيط الْمحرّك! مرْوحتك داخل قفْل من فُولاذ إذا دارتْ انكسرتْ، وبقيت الباخرةُ تحت رحمة التّيارات والرّياح. فهل ستُنْصتُ إلى صوْت العقْل، وتُقْفلُ صمامات تلْويثك؟

•

فضرب الرُّبّانُ على خشب السّياج بقبْضته غاضبا مهْزوما. وأمر بإقْفال صمامات المجاري. ثُمّ صاح في خصْمه:

ـ والآنَ، مَاذَا تُرِيدُ ؟

ـ أُرِيدُ أَنْ أَضْمَنَ أَنَّكَ لَنْ تَعُودَ إِلَى التَّلْوِيثِ بَعْدَ الابْتِعَادِ قَلِيلاً عَن هَذِه المِنْطَقَةِ.

ـ وَكَيْفَ سَتَضْمَنُ ذَلِـك ؟ بَعْـدَ هَـذَا الفَصْلِ السَّخِيفِ، أَنَـا قَرَّرْتُ أَلاَّ أَعُـودَ إِلَى صَبِّ النَّفْـطِ فِي البَحْرِ... فَـانْـزَعِ القُفْلَ عَنِ الرفَّاص !

وَحرَّكَ القَائِدُ رَأْسَهُ غيْرَ مُقْتَنِع فصَاحَ الرُّبَّانُ :

ـ أُعْطِيكَ كَلِمَةَ الشَّرَفِ !

ـ كَلِمـةُ شَرَفِـكَ لاَ تَكْفِي لِتَنْظِيفِ الْمَسَـافَـةِ التِي لَوَّثْتَهـا، وَإِحْيَـاءِ مَـلاَيِيرِ البيضِ وَالنَّبَـاتَـات التِي أَتْلَفْتَ بتَهَوُّرِكَ وَطَيْشِكَ !

ـ مَاذَا تُرِيدُ ؟!

ـ أُرِيدُ أَنْ تَدْفَعَ شَرِكَتُكَ غَرَامَةَ مِائَةَ أَلْفِ دُولاَر...

ـ مَاذَا ؟! مِائَةَ أَلْفِ دُولاَر ؟! هَلْ جُنِنْتَ ؟!

ـ اتَّصِلْ بِالشَّرِكَة، وَأَخْبِرْهَـا بِوَضْعِـكَ الآن. وَخَيِّرْهَـا بَينَ أَن تَدفَعَ، أَو تَتْرُكَ البَاخِرَةَ لِلتَّيار البَحْرِي يَـدْفَعُهَـا نَحْوَ صُخُورِ الشَّاطِئِ...

وَلَمْ يَجِدِ الرُّبَانُ المُتَهَوِّرُ مَهْرباً مِن الاتِّصَالِ بِشَرِكَتِهِ وَإِخْبَارِهَا بِالمَأْزِقِ. وَتَدَخَّلَتْ (مَدِينَة الأَعْمَاقِ) مَعَهُ فِي الخَطِّ، لِتَصْحِيحِ تَقْرِيرِهِ العَامِرِ بِالمُغَالَطَاتِ وَالأَكَاذِيب، وَتُعْطِي عُنْوَانَ جَمعِية «أَصْدِقَاء البَحْرِ التَّابِعَة لِهَيْأَةِ الأُمَمِ» فِي مَدِينَةِ (جنِيف) حَيْثُ دَفعَتِ الشَّرِكَة الغَرَامَةَ، وَأَطْلَقَتْ سَرَاحَ البَاخِرَة.

أَطْفَأَتْ (رَنْدَة رِيم) لَوْحَ الاِسْتِقْبَالِ، وَسَأَلَت (مِيخَائِيل) فِي تَحَدٍّ ضَاحِكٍ :

ـ وَالآنَ، هَلْ تُصَدِّقُنِي ؟

فابْتَسَمَ (مِيخَائِيل) وَقَالَ :

ـ رَأَيْتُ أَفْلاَماً وَأَشْرِطَةَ فِيدِيُو كَثِيرَةً مِثْلَ هَذِهِ...

فَضَحِكَتْ (رَنْدة رِيم) مَرَّة أُخْرَى غَيْرَ مُصَدِّقَةٍ إِصْرَارَهُ عَلَى تَكْذِيبِهَا :

ـ هَلْ تَعْتَقِدُ حَقِيقَةً أَنَّ مَا رَأَيْتَـهُ كَـانَ مُجَرَّد شَرِيـطٍ سِينِمَائِي أَو ڤِيدْيُو ؟

وَهُنَا اَنْفَتَحَ البَابُ، وَدَخَلَ رَجُلٌ مُتَوسِطُ القَامَةِ، يَلْبَسُ قَمِيصاً وَسَرَاوِيلَ، وَعَلى عَيْنَيْهِ نَظَارَةٌ، فَبَادَرَتْـهُ (رِنـدَة رِيم) ضَاحِكَةً :

ـ جِئْتَ فِي الـوَقْتِ المُنَـاسِبِ، يَـا أَبِي ! هَـذَا لاَ يُصَدِّقُ شَيْئاً مِمَا أَقُولُ لَـهُ، وَلَوْ رَآهُ بِعَيْنَيْـهِ !.فـابْتَسَمَ الرَّجُلُ الذي كَانَ فِي حُدُودِ الأَرْبَعِينَ، وَوَقَفَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا :

ـ أَلا تَقُولِينَ لِي.أَوَّلاً مَنْ هُوَ هَذَا، ثُمَّ تُخْبِرِينَنِي بِمَـا لاَ يُصَدِّقُ ؟

فَوَقَفَتْ تَعْتَذِرُ ضَاحِكَةً :

ـ سَـامِحْنِي... ظَنَنْتُـكَ تَعْرِفُـهُ... وَكَيْفَ لاَ وَأَنْتَ رَئِيسُ قِسم الإِعْلاَمِ بِالمَدِينَة ؟

فَرَدَّ الأَبُ :

ـ حَتَّى وَلَوْ كُنْتُ أَعْرِفُهُ، فَمن الأُصُولِ تَقْدِيمُ النَّاسِ

بَعْضِهِم لِبَعْضٍ قَبْلَ إِشْرَاكِهِم فِي الحَدِيثِ... وَمَدَّ يَدَهُ إِلَى (مِيخَائِيل) مُصَافِحاً :

- أَهْلاً بِكَ (يا مِيخائِيل) - اِسْمِي أَنَا فَارُوقَ الوَادِي - كَيْفَ حَالُكَ ؟

- الحَمْدُ للَّهِ...

- هَل بَدَأْتَ تَسْتَرْجِع صِحَتَكَ ؟

- اِسْتَرْجَعْتُهَا تَمَاماً، وَالحَمْدُ لِلَّهِ.

فَقَالَ الدُّكْتُورُ فَارُوقَ.

- والآنَ فِيمَا كُنْتُمَا تَتَجَادَلاَنِ ؟

- مِيخَائِيل لَمْ يُرِدْ تَصْدِيقَ مَا كَانَ يَقَعُ بَيْن فَرِيقِ مُكَافَحَةِ التَّلْوِيثِ وَالبَاخِرَةِ المُلَوِّثَةِ ! رَأَى كُلَّ شَيْءٍ عَلَى لَوْحِ الاِسْتِقْبَالِ، وَقَالَ إِنَّهُ مُجَرَّدُ فِيلْمٍ !

فَقَالَ الأَبُ :

- إِذَا لَمْ يُصَدِّقْ، فَأَنْتِ السَّبَبُ !

فاسْتَنْكَرَتْ ضَاحِكَةً :

ـ أَنَا ؟!

ـ نَعَمْ ! كَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَـأْخُـذِي ضَيْفَـكِ، وَتُطْلِعِيـهِ عَلَى جَمِيعِ مَرَافِقِ (اليُونُسِيَة) أَوَّلاً... وَحِينَ يَعْرِفُ مَا يَجْرِي هُنَا سَيَقْتَنِعُ...

فَقَالَتْ (رِنْدة رِيم) مُعَارِضَةً :

ـ أَوَلاً، إِنَّهُ لَيْسَ ضَيْفِي، التَقَيْنَـا هَـذَا الصَبَـاحَ فَقَـطْ، فِي مَلْعَبِ كُرَةِ المَضْرب...

فَقَاطَعَهَا أَبُوهَا ضَاحِكاً :

ـ عَيْب ! عَيْب، أَن تَتَبَرَّئي مِن ضِيَافَةِ ضَيْفِكِ، فَقَدْ سَبَقْتِهِ إِلَى هُنَا... وَلَهُ عَلَيْكِ حَقُّ الضِّيَافَةِ !

وَلَمْ يُبَالِ بِاحْتِجَاجِهَا، وَهِيَ تَقُولُ لَـهُ إِنَّهَـا لَمْ تَعْرِفْ مَتَى وَصَلَ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى ظَهْرِ (مِيخَائِيل)، وَقَادَهُ خَـارِجَ الغُرْفَةِ قَائِلاً :

ـ تَعَـالَ مَعِي نَتَجَوَلْ قَلِيـلاً فِي مَـدِينَـةِ (اليُـونسِيَـة). كُنْتُ أَبْحَثُ عَنْكَ لِهَذَا الغَرَضِ.

وَالْتَفَتَ إلَى (رَنْدَة رِيم) :

ـ وَأَنْتِ كَذَلِكَ (يَارَنْدَة)، سَنَتَغَدَّى مَعاً بَعْدَ الجَوْلَةِ.

- 14 -

مَشَى الثَلاَثَـةُ فِي مَمَرٍّ وَاسِعٍ طَوِيلٍ، خَرَجُوا مِنْـهُ إِلَى سَاحَةٍ دَائِرِيَّةٍ وَاسِعَـةٍ. وَتَوقَّفَ الـدُّكْتُورُ فَـارُوقُ الوَادِي عِنْـدَ لاَفِتَـةٍ عَلَى شَكْلِ نَجْم بَحْرِيٍّ عِمْلاَقٍ، كُتِبَ عَلَيْهَـا «مَـدِينَـة اليُونُسية» وَبِهَا سَهْمٌ أَحْمَرُ، يُشِيرُ إِلَى نُقْطَةٍ بِقَلْبِ المَـدِينَـةِ، كُتِبَ عَلَيْهَا : «أَنْتَ هُنَا».

قَالَ الدُّكْتُورُ فَارُوق (لِمِيخَائِيل) :

ـ نَحْنُ هُنَا، فِي وَسَطِ المَدِينَةِ السَّكَنِيَّةِ، وَبِهَـا تُوجَـدُ المَنَازِلُ، وَالسُوقُ المَرْكَزِيَةُ، وَقَـاعَـةُ الاجْتِمَـاعَـاتِ الكُبْرَى، وَالنَادِي، وَالمَـدْرَسَـةُ، وَالمُسْتَشْفَى، وَمَلاَعِبُ الرِّيَـاضَـةِ، إِلَى

غَيرِ ذَلِكَ مِن مَرافِقِ المُدُنِ الحَدِيثَةِ.

وَأَشَارَ إلَى أَبْوَابٍ وَنَوَافِذَ وَاسِعَةٍ، تُطِلُّ عَلَى القَاعَةِ :

ـ وَتِلْكَ مَتَاجِرُ اليُونُسِيَةِ. وَبِهَا مِنَ السِّلَعِ أَجْوَدُ مَا صَنَعَتْهُ عَبْقَرِيَةُ الإِنْسَانِ فِي جَمِيعِ المَيَادِين... سَتُفَرِّجُكَ عَلَيْهَا «رَنْدَة رِيم» فِي وَقْتٍ آخَرَ...

وَنَظَرَ مِيخَائِيل إلَى السَّقْفِ، فَإِذَا هُوَ عَالٍ جِداً، وَيُشْبِهُ قُبَّةً زَرْقَاءَ تَنْفُذُ مِنْهَا أَشِعَّةُ الشَّمْسِ.

قَالَ الدُّكْتُورُ فَارُوقٌ :

ـ مِن هُنَا تَتَفَرَعُ أَحْيَاءُ المَدِينَةِ السَبْعَةُ نَحْوَ أَطْرَافِهَا. وَكُلُّ فَرْعٍ يَضُمُّ مَجْمُوعَةَ مُخْتَبَرَات لِلْبَحْثِ العِلْمِي، يَتَرأَسُهَا عَالِمٌ كَبِيرٌ. لِنَبْدَأْ جَوْلَتَنَا، إِذَن، مَن هَذَا الفَرْعِ. وَهُوَ أَهَمُّ فرُوعِ «اليونسِيَة» : فَرْعُ الأَحْيَاءِ البَحْرِيَةِ.

وَبَعْدَ جَوْلَةٍ فِي عَدَدٍ مِن الأَقْسَامِ، وَصَلُوا إِلَى قَاعَةِ التَّحَالِيلِ. وَكَانَتْ وَاسِعَةً وَجَيِّدَة الاضَاءَة، فَوَجَدُوا بِهَا عَدَداً كَبِيراً مِن الشَّابَّات وَالشُّبَّان من جَمِيعِ الجِنْسِيَات، جَالسِين

إِلَى مَجَاهِرَ إِلِيكترُونِيَةٍ يُحَلِّلُونَ خَلاَيَا النَّبَاتِ وَالحَيَوَانَاتِ الْبَحْرِيَةِ، وَيُطْعِمُونَ الكُومْبِيُوتَرْ نَتَائِجَ أَبْحَاثِهِم.

وَاسْتَقْبَلَهُمْ عَلَى البَابِ الدُّكْتُور الطَّيِّب جِبْرِيل السُودَانِي الجِنْسِيَة، وَرَئِيسُ الْمُخْتَبَرِ، فَرَحَّبَ بِهِمْ، وَأَخذهُم فِي جَوْلَةٍ.

وَأَثْنَاءَ الجَوْلَةِ لاَحَظَتْ «رَنْدَة رِيم» بَرِيقَ عَيْنَيْ (مِيخَائِيل) فَقَالَتْ ضَاحِكَةً :

ـ (مِيخَائِيل) مَسْرُورٌ مِن جَوْلَتِهِ فِي هَذَا المُخْتَبَرِ... يَبْدُو أَنَّهُ أُعْجِبَ بِه كَثِيراً.

فَسَأَلَهُ الدُّكْتُورُ فَارُوق :

ـ صَحِيحٌ، يَا (مِيخَائِيل) ؟

ـ الحَقِيقَةُ أَنِّي أَجِدُ هَذَا المَكَانَ مَأْلُوفاً جِدّاً بِالنِسْبَةِ إِلَيَّ... كَأَنَنِي كُنْتُ فِيه من قَبْلُ...

فَتَدَخَلَ الدُّكْتُور الطَيِّبُ جِبْرِيلَ :

ـ لَعَلَّكَ اشْتَغَلْتَ فِي مُخْتَبَرٍ مِن قَبْلُ... فَالمُخْتَبَرَاتُ كُلُّهَا مَتَشَابِهَةٌ ! هَل تُحِبُّ أَن تُجَرِّبَ أَحَدَ مَجَاهِرِنَا ؟

وَأَشَارَ إِلَى كُرْسِي فَارِغٍ، فَجَلَسَ (مِيخَائِيل) مَسْرُوراً، وَأَمْسَكَ المِجْهَرَ بِطَرِيقَةِ الخَبِيرِ المُجَرِّبِ، وَالتَقَطَ عينةً، وَأَخَذَ يَنْظُرُ إِلَيْهَا، وَيُسَجِّلُ مُلاَحَظَاتِهِ...

وانْدَهَشَ الدُّكْتُورُ جِبْرِيل عِنْدَمَا نَظَرَ بِنَفْسِهِ إِلَى العَيِّنَةِ، وَوَجَدَ أَنَّ مَا كَتَبَهُ (مِيخَائِيل) كَانَ صَحِيحاً، بَلْ وَدَقِيقاً ـ فقَال :

ـ لاَ بُدَّ أَنَّكَ اشْتَغَلْتَ فِي مُخْتَبَرٍ مِن قَبْل !

فَقالَ (مِيخَائِيل) :

ـ لاَ أَدْرِي.

فَظَهَرَ الارْتِبَاكُ عَلَى وَجْهِ الدُّكْتُورِ جِبْرِيلَ، وَلَكِنَّ الدُّكْتُورَ فَارُوقاً أَنْقَذَ المَوْقِفَ بِقَوْلِهِ :

ـ (مِيخَـائِيـل) يُعَـانِي مِن فُقْـدَانِ ذَاكِرَةٍ مُـؤَقَّتٍ... وَسَوْفَ يُسَاعِدُنَا هَذَا الكَشْفُ الجَدِيدُ عَلَى تَحْـدِيـدِ هُوِيَّتِـهِ، وَإِنْعَاشِ ذَاكِرَتِه...

وَارْتَاحَ الدُّكْتُورُ جِبْرِيل، وَرَبَتَ عَلَى ظَهْرِ الْفَتَى :

ـ اسْمَعْ يَا وَلَدِي، إِذَا أَرَدْتَ العَمَلَ مَعَنَا هُنَا، فَمَرْحَبـاً بِكَ، سَوَاءٌ عَادَتْ إِلَيْـكَ ذَاكِرَتُـكَ أَمْ لَمْ تَعُـدْ، فَـأَنْتَ مَوْهِبَـةٌ مُخْتَبَرِيَّةٌ طَبِيعِيَةٌ، لَمْ يُؤَثِّرْ عَلَيْهَا فُقْدَانُ الذَّاكِرَةِ !

وَبعْدَ سَاعَتَيْنِ قَضَوْهَـا فِي جَوْلَـةٍ عِلْمِيـةٍ مُمْتِعـةٍ، عَـادَ (مِيخَائِيل) مُرْهَقاً جَسَدِيـاً وَعَقْلِيـاً، وَمَبْهُوراً بِعَظَمَـةِ مَـا رَأَى من مَظَاهِرِ الرُّقِي وَالتَّقَدُمِ العِلْمِيِّ الكَبِيرِ...

وَفِي المَطعَمِ الـوَاسِـعِ، جَلَسُـوا يَتَغَـدَّوْنَ عَلَى مَـائِـدَةٍ طَـوِيلَـةٍ، جَلَسَ إِلَيْهَـا جَمَـاعَـةٌ مِن الْعُلَمَـاءِ مِن الجِنْسَيْن... وَكَانَتْ «رَنْدَة رِيم» إِلَى جَـانِبِ (مِيخَـائِيل) تَهْمِسُ فِي أُذُنِـهِ بِأَسْمَاءِ وَاخْتِصَاصَاتِ الحَاضِرِينَ الكِبَـار، وَهُوَ يُنْصِتُ إِلَيْهَـا،

وينظُرُ إلَيْهِم فِي إعْجَابٍ...

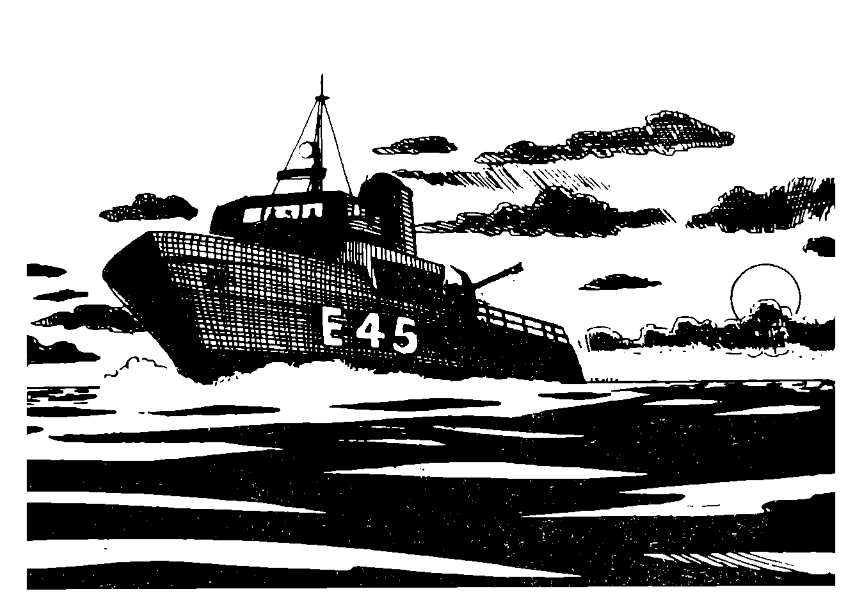
وَجَلَسَ (مِيخَائِيل) مَبْهُوراً، لاَ يَكَادُ يَمْضَغُ مَا يَضَعُهُ فِي فَمِهِ مِن أَكْلٍ... كَيْفَ يُوجَدُ كُلُّ هَذَا وَلا أَحَدَ يَعْرِفُ بوُجُودِهِ ؟ هَلْ هَذَا حَقِيقَةٌ، أَمْ حُلُمٌ مِن أَحْلاَمِهِ التِّي طَالَتْ أَكْثَر مِمَّا يَجِبُ !؟

- 15 -

وفي تلْك اللّيْلة، نام نوْما مُتقطّعا تمْلأهُ الكوابيسْ...

كان يرى نفْسهُ علَى ظهْرِ خافِرَةٍ لحرَس الشواطئ، وقَدْ أمْسَك به البَحّارةُ، وربَطُوا يَديْه وَراءَ ظَهْرِه، وَأوْثَقُوا ساقَيْهِ بسلْسلَة إلى حجَر كَبيرٍ، وَألْقَوْا بِهِ فِي البَحْرِ، فَيصْرُخُ فِي نوْمِهِ ويَسْتَغيثُ، دُونَ أَنْ يَصْدُرَ عَنْهُ أي صَوْت...

وَيَدُقُّ الْجرَسُ فِي غُرْفَةِ الْمُمَرضَةِ، فَتُسْرعُ إلَيْه، وَتُوقِظُهُ، وَقَدْ تَصَبب العَرَقُ عَلَى سَائِرِ جَسَدِهِ، وَكَادَ يَخْتَنِقُ، وَكَأَنَّهُ كَانَ يَغْرَقُ فِعْلاً !


E45

وبمجرَّدِ مَا يَعُودُ إلَى النَّوم، يَرى نَفْس المشْهد، ولكنَ الشَّخْص الذِي كَانَ مُكَبَّلاً، وَيُلْقى بِه في البَحْر، هذه المرَّة، هُوَ أَبُوهُ !

وتُضيءُ المُمَرِّضَةُ الغُرفَةَ، وَتَجْلِسُ إلَى جَانِب سريره، تَطْرُدُ عَنْهُ الكَابُوسَ، وَتُبْقِيهِ مُسْتَيْقِظاً حَتَّى لاَ يُصَابَ بِالْجُنُونِ !

وفِي الصَّبَاحِ، جَاءَتِ الدُّكْتُورَةُ (نَبيهَةُ) لِفَحْصِهِ. فَرَأَتْ ما سجَلتْهُ المُمَرِّضَةُ عَلَى لَوْحِ حَالَتِهِ. ثُمَّ فَحَصَتْ بِعِنَايَةٍ أشْرطَةَ «رَاصِدِ الانْفِعَال» الْمَوْصُول بِرأْسِ (مِيخَائِيل) وَبَعْضِ أطْرافه، وعلَّقتْ، وَهِي تَبْتَسِمْ لَهْ :

- لاَبُدَّ أَنَّكَ قَضَيْتَ لَيْلَةً لَيْلاَءَ !

وجلستْ إلَى جَانِب سَرِيرِهِ تَسْأَلُهُ، وَتُنْصِتُ إلَى إجاباته عن تفاصيل الكَابُوس الْمُتَكَرِّر.

وفي النَهـايـة، سـألَتْـهُ هلْ يـذْكُرُ شَيْئـاً جَـدِيـدا من مضيه، فأجاب بالنَفْي.

قالتْ : «سنجرّبُ طَريقَـةً جـدِيـدَةً، لنُسَـاعِـدَكَ عَلَى التَـــذكُر... مهمٌ أن تتـــذكَر، وفي أقْرب وَقْتٍ... وَإلاّ استهلكك هذا الكابوسُ المُخيفُ، وَهذا الغَضَبُ الذي يَلْتَهبُ بداخلك، دُونَ أنْ تعْرف سببهُ !».

ودخل الدُكتور غـازي منْصُور، المُنسّقُ العـام لِشُؤُون (اليونسية)، فحيّا الجماعـة بمرح، وألْقى بَعْضَ الأسْئِلَـةِ عَلَى الدُكتورة (نبيهة) عن حالة (ميخائيل)، فانْتَحَتْ بـه جـانبـاً، وهو يقْرأ سجلَ الحالة، وَهَمَسَتْ لهُ :

ـ هذَا الغَضَبُ سَيُحْرِقُهُ إذَا اسْتَمرَّ... سأُجَرِّبُ إخْراجهُ الى نفْس المَكَان الَـذي الْتَقَطْنَـاهُ منْـهُ، لَعَلَّ وُجُودهُ هُنـاك يَعيدُ إلَيْه الحَدَثَ الذي أفْقَدَهُ الذَّكِرَةَ... لاَ يَنْبَغي أن نُعيده


مخرج
EXIT
SAS

إِلَى أَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ نَعْرِفَ، وَيَعْرِفَ هُوَ، ظُرُوفَ اخْتِفَائِه... قَدْ يَتَعَلَّقُ الأَمْرُ بِجَرِيمَةٍ. وَقَدْ تَتَكَرَّرُ العَمَلِيَّةُ لِلتَّخَلُّصِ مِنْهُ، وَمِن شَهَادَتِهِ ضِدَّ الْمُجْرِمِينَ.

وَأَعْطَى الدُّكْتُورُ غَازِي مُوَافَقَتَهُ.



- 16 -

جَاءَتْ (رَنْدَة رِيم) فَوَجَدتْهُم يُعدُّون (ميخائيل) لِلْخُرُوجِ إِلَى سَطْحِ الْمَاءِ، فَأَخَذَتْ تَرْجُو الدُّكْتُورة (نبيهة) أَنْ تُرَافِقَهُم في الغوَّاصَةِ. تَمَنَّعَت الدُّكْتُورَةُ (نبيهةُ) أَوَّلا قَائِلَةً :

ـ هذه لَيْسَتْ نُزْهةً سياحيةً. إنّها تجْربةٌ علاجيةٌ... ثُمّ إنّ الغوّاصَة ليْس بها إلاّ ثلاثةُ أماكن...

فقاطعتْها (رنْدة ريم) :

ـ أنا أُحْسن سياقةَ الغوّاصة. ويْمكنْ أن آخذ مكان السائق، وأعدُك أن أمكُث صامتة !

ـ لا أَدْري . وَلَكِنْ اسْأَلِي (مِيخَائيل)، إِذَا قَبلَ، فَلاَ مَانعَ عِنْدي...

وتَوجَّهت (رنْدة) إلَى (مِيخَائيل)، وَلَمْ تَتْرُكْهُ حَتَى قَبلَ، ليَتَخَلَّصَ مِن إلْحَاحِهَا..!

وَتَوجَّهَ الثَّلاَثَةُ إِلَى حَيْثُ المَصَاعِدُ، فصعِدُوا إِلَى الطبَقة العُلْيا، وَمِن هُنَاكَ، رَكِبُوا غَوَّاصَةً فِي حَوْضٍ كَبيرٍ مُسْتَطِيلٍ، وَأَمْسكَتْ (رَنْدَة رِيم) بِضَوَابِطِ الغَوَّاصَةِ بِمَهَارَةٍ، فَغَطَسَتْ بِهَا لِتُجَرِّبَهَا دَاخِلَ الحَوْضِ، وَرَاقَبت أَضْوَاءَهَا الدَّاخِلِيةَ، ثُمَّ تَكَلَّمَتْ فِي سَمَّاعَةٍ أَمَامَهَا :

ـ عَلَى اسْتِعْدَادٍ !

وَانْفَتَحَتْ أَمَامَهُمْ بَابٌ، دَلَفَتْ إِلَيْهَا الغوَّاصَةُ، وانْقَفَلَتْ خَلْفَهُم، وَأَخَذَ المَاءُ يَمْلأُ الغُرْفَةَ الصَّغِيرَةَ التَّي وَقَفَتْ فِيهَا الغَوَّاصَةُ، وَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْهِ مِن خِلاَلِ سَطْحِهَا الزُّجَاجِي السَّمِيك.

وَحِينَ امتَلأَتِ الغُرْفَةُ، انفتَحَ بَابٌ آخَرُ، وَانْطَلَقَت

الغوّاصةَ إلى البحْر...

ظلّتْ صاعـدةً على مهل... وكُلّمـا ارْتفعتْ، زاد ضوْءُ الشّمْس سطُوعاً، ومياهُ المحيط الزّرْقاء شفافيةً...

وحين لمْ يبْق بيْنهـا وبيْن السّطْـح إلاّ متْرٌ أوْ نصْفُـهُ، ضغطتْ (رنْدة ريم) زرّاً، فخرَج منْظـارٌ من أعْلَى الغوّاصـة، وقالتْ :

«يمْكنُكمْ أن تَنْظُرُوا أنْتُم كذَلكَ».

وَالْتَفَتَتْ إلَى (ميخَائيل) بَاسِمَةً، وَأَشَارَتْ بأُصْبُعهَـا إلى عَيْن منْظَارٍ بجَانِب وَجْهِهِ، فَأَخَذَ، هُوَ الآخَرُ، يَنْظُرُ...

كَانَ البَحْرُ هَادِئاً. فَاسْتَطَاعُوا أَنْ يَرَوا مَسَافَاتٍ بَعِيـدَةً في كُلِّ اتِّجَاهٍ. فَلَم يَرَوا إلاَّ المَاءَ. سَأَلَ رَنْدة :

- فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ تُوجَدُ اليَابسَةُ ؟

- إلَى يَمِينِكَ... وَلَكِنَّهَا لاَ تُرى مِن هُنَا.

وَتَوجَّهَتْ بالسُّؤَال إلَى الدُّكْتُورَة (نَبِيهَة) :

- إلَى أَيْنَ نَذْهَبُ الآنَ ؟

توجهي نحو رتل مَراكِب الصَّيْدِ عَلَى يَسَارِكِ، هَلْ رأيته ؟

ـ نعم...

ـ لا تقتربي كثيرا حتَّى لا يَرَوْنَا وَيَعْتَقِدُونَا حُوتاً أوْ سمكة كبيرة...

فسأل (ميخائيل) :

ـ ماذا لوْ رأوْنا ؟

ـ قد يرْمونَنا بالرّصاص، أو يُلْقُون عَلَيْنَا بَعْضَ المُتفجّرِ هؤُلاء الصّيادُون بعْضُهُمْ حيَوانَاتٌ أجْلاَفٌ، لاَ يعْملُون حسابَ الغد، لاَ يَهمُّهُمْ أن يَقْضُوا عَلَى مَلاَيِين الأسْماكِ الصغيرة، أوْ بيْضهَا الَّذي هُوَ رزقُ غَدِهِم ومُسْتقْبلهمْ، إذا كانُوا يملؤُون مرْكبهُم ذَلِكَ اليَوْمَ !

واقْتربت الغوّاصةُ من رتل مَراكب الصَّيْدِ التِّي كَانَ يبْتعدُ بعْضُها عن بعْض مسافات كافيَةً لِكَيْ لاَ تَتَصَادَمَ، وَلاَ يُشوِّش بعْضُها على البعْض.



قالت الدُّكْتُورَة (نَبِيهَة) (لِرَنْدَة رِيم) :

ـ انْـزلي قليـلاً حتَّى لاَ يَرَوْنَـا، فَقَـدْ أَصْبَحْنَـا عَلَى مرْمى رصَاصِهم...

وَنَزَلَت الغَـوَّاصَـةُ حَتَّى اقْتَرَبَتْ مِن القَعْرِ الـذِي كَـانَ قَرِيباً فِي تِلْكَ المِنْطَقَةِ...

وَفَجْأَةً، ترامى إِلَى أَسْمَاعِهِم هَـدِيرُ مُحَرِّكٍ يَقْتَرِبُ مِن فَـوْقِهِم، وَصَـوْتُ انْسِحَـابِ شَيْءٍ كَبِيرٍ فِي قَعْرِ الْبَحْرِ، يَتَّجِـهُ نَحْوَهُم.

حَاوَلَتِ الـدُّكْتُورَةُ (نَبِيهَـة) أَن تُسَيْطِرَ عَلَى أَعْصَـابِهَـا، لِشُعُورِهَا بِالْمَسْؤُولِيَةِ عَلَى الشَّابَّيْنِ، وَقَالَتْ بِصَوْتٍ هَادِئٍ :

ـ رَنْدَة... ابْتَعِدِي عَن مَصْدَرِ هَذَا الصَّوْتِ...

وَفِي تِلْـكِ اللَّحْظَـةِ، رَأَوا بَطْنَ مَرْكَبٍ ضَخْمٍ يَمُرُّ مِن فَـوْقِهِم، وَيَسْحَبُ خَلْفَـهُ عَجَاجَـةَ غُبَـار... فَصَـاحَتْ (رَنْـدة رِيم) :

ـ إنَهُ يجُرُّ شبكَةً.

وأدارتْ عجلة القيادَة في نَفْس اتِّجاه الْمرْكب، حتّى لا يجْرف الغوّاصة بالشَّبكَة... وسَارتْ بسْرْعَة فائقة، ولكنَّ سْرْعة المَرْكَب كَانتْ قريبَةً من سُرْعَة الغوّاصَة، فبَقيَ صوْتُ المحرِّك الْهادر، وهديرُ انْسحَاب الشَّبَكَة المُخيفْ يُطاردْهم كغُول بحْريٍّ مُخيف..!

وَصَاحَ (مِيخَائِيل) :

ـ دُوري إِلَى اليَمِينِ، اخْرُجي مِن طَرِيقِهِ !

وَأَدَارَتْ (رَنْدَةُ) العَجَلَةَ، فَلَمْ تَدُرِ الغوَاصَةُ... ثُمَّ أَدَارَتْهَا إِلَى النَّاحِيَةِ الأُخْرَى فَلَمْ تَسْتَجِبْ... وَسأَلَتِ الدُّكْتُورَة، وَهِي تُحَاوِلُ كِتْمَانَ قَلَقِهَا :

ـ مَاذَا حَدَثَ ؟

فَأَجَابَتْ رَنْدَة :

ـ الغَوَّاصَةُ لاَ تَسْتَجِيبُ لِعَجَلَةِ القِيَادَةِ، لاَبُدَّ أَنَنَا وَاقِعُونَ تَحْتَ تَيَّارِ المَرْكَبِ، وَهُوَ يَسْحَبُنَا فِي اتِّجَاهِهِ...

سرعتنا أقلَّ من نزعته !

- وماذا سنفعل الآن ؟

- لا أدْري.

وتدخَل (ميخائيل) :

- هلْ تحْملُ الغوّاصةُ ثقْلاً يمْكنُ الاسْتغْناءُ عنْهُ ؟

- لا أدْري ماذا تعْني ؟

- خـزّان وقـودِ احْتيـاطيٍّ مثـلاً، أوْ صُنْـدوق أدوات إصْلاح...

- لاَ أعْتَقدُ...

- وَلَكِنّي رَأيْتُ شَيْئاً أشْبَـهَ بـذلـكَ عَلَى جَـانِبَيْهَـا وَبقَاعِهَا !

وَتَذَكَّرَتْ (رَنْدَة ريم) فَصَاحَتْ :

- صَحِيحٌ ! إنَّهَا صَوَاريخ !

- صَوَاريخُ ؟ هَلْ تَعْرفِينَ كَيْفَ تُطْلِقِينَهَا ؟

- نَعَمْ، أَعرفُ !

ـ هَلْ يُمْكِنُكَ إِطْلاَقُهَا فِي أَيِّ اتِّجَاهٍ تَشَائِين ؟

ـ نَعَمْ !

فَتَدَخَّلَتِ الدُّكْتُورَة :

ـ (مِخَائِيلُ)، مَاذَا تَنْوِي أَنْ تَفْعَلَ بِالصَّوَارِيخ ؟

ـ سَنَضْرِبُ بِهَا عُصْفُورَيْنِ بِحَجَرٍ !

ـ كَيْفَ ؟

ـ انْطِلاَقُ الصَّوَارِيخ الأَرْبَعَةِ، وَاحِداً بَعْدَ الآخَرِ، سَيَزِيدُ مِن سُرْعَتِنَا، وَيُمَكِّنُنَا مِن الْخُرُوجِ مِن سَيْطَرَةِ تَيَّارِ المَرْكَبِ... وَإِذَا اسْتَطَعْنَا إِصَابَةَ حِبَالِ الشَّبَكَةِ، وَفَصْلَهَا عَنِ المَرْكَبِ، فَسَنَنْجُو مِن تَيَّارِهَا، هِيَ الأُخْرَى...

وَتَوَجَّهَ بِالسُّؤَالِ إِلَى رَنْدَة :

ـ هَلْ تَسْتَطِيعِينَ إِصَابَةَ حِبَالِ الشَّبَكَةِ ؟

ـ سَأُحَاوِلُ...

فَتَدَخَّلَتِ الدُّكْتُورَةُ مَرَّةً أُخْرَى :

ـ أَلاَ يَحْسُنُ أَن نَتَّصِلَ بِمَرْكَزِ الْمُرَاقَبَةِ،

وَنَسْتَشِيرَهُم ؟ لَعلَّ في إطْلَاق الصَواريخ، من هذه المسافة الْقَصِيرَة، خَطَراً عَلَيْنَا...

فَأَجَابَتْ رَنْدة :

- لَقَدْ حَاوَلْتُ الاتَصَال، وَلَكِنَّ وُجُودَ المرْكب الضَّخْم فَوْقَنَا، وَالشَّبَكَةَ، وتشويشَ المُحَرِّكَات، يحُولُ دُون ذَلكَ !

فَقَالَ (مِيخَائيل) :

- لابُدَّ أَنَّهُمْ يَعْرِفُونَ مَا يَحْدُثُ لَنَا ! فَلابُدَّ أَنَّهُم تَتَبَّعُوا حَرَكَتَنَا عَلَى شَاشَةِ الرَّادَار، مِن بُرْجِ الْمُرَاقَبَة. وَلَو اسْتَطَاعُوا عَمَلَ شَيْءٍ، مَا تَرَدَّدُوا.

فَقَالَتْ «رَنْدَة» غَيْرَ خَائِفَةٍ :

- إذَنْ، فَقَدْ تَرَكُونَا لِمَصِيرِنَا، وَعَلَيْنَا أَن نَتَصَرَّفَ...

والْتَفَتَ (مِيخَائِيل) إلَى الخَلف، فَلاحَتْ لَهُ فُوهَةُ الشَّبَكَة الْوَاسِعَة، كَفَمِ غُولٍ بَحْرِيٍّ مِنَ الْعُصُورِ الغَابِرَة، وَهِيَ تَقْتَرِبُ مِنْهُم بِسُرْعَةٍ مُزْعِجَةٍ، لِتَبْتَلِعَهُم مَعَ مَا ابْتَلَعَتْهُ مِن

أسْماكٍ ونباتَاتٍ وَأحْجَار !

وَالْتفتَت الدُّكْتُورَةُ (نَبيهَة)، فأصابهَا رُعْبٌ شَديدٌ، وَأَخَذَتْ تَرْتَعدُ، وَصَاحتْ في (رَنْدَة) ليَعْلُوَ صوْتُهَا عَلَى صَوْتِ المُحَرِّكَاتِ الْهَادرِ :

ـ عَجِّلي يَا رَنْدَة بالصَّوَاريخِ ! حَاولي ألاَّ تُخْطِئِي !

فَأَجَابَتْ رَنْدَة بثِقَةٍ كَاملَةٍ :

ـ لاَ تَخَافِي، يَا مَامَا نَبيهَة ! صَوَاريخُ الغَوَّاصَة تُوَجَّهُ بِأَشعَّةِ اللِّيزرِ، عَن طَريقِ الكُومْبيُوتِرْ، وَلاَ مَجَالَ لِلْخَطَأ...

وَطَبَعَتْ رَقْمَاً عَلَى مَفَاتِيحِ الكُمْبيُوتر، وَانْتَظَرَتْ لَحْظَةً، كَانَتْ فيهَا نُقْطَةٌ حَمْرَاءُ تَتَّجهُ لِتَقِفَ فَوْقَ نُقْطَةٍ صَفْرَاء، وَقَالَتْ :

ـ الصَارُوخُ الأَوَّلُ جَاهِزٌ لِلإطْلاَقِ !

ثُمَّ ضَغَطَتْ عَلَى زرٍّ، وَأَضَافَتْ :

ـ انْطَلَقَ الصَّارُوخُ الأَوَّلُ !

وَأَحَسَّ الثَّلاَثَـةُ بـاهتِزَازٍ خَفِيفٍ، قَفَزَتْ مَعَـهُ الغَوَّاصَـةُ إِلَى الأَمَـامِ؛ وَبَعْـدَ بِضْـعِ ثَـوَانٍ، سَمِعُـوا صَـوْتَ انْفِجَـارٍ كَبِيرٍ مَكْتُومٍ، هَزَّ بِهِمُ الغَوَّاصَةَ بِعُنْفٍ، حَتَّى انْقَلَبَتْ أَمْعَاءُ الثَّلاَثَةِ.

- الصَارُوخُ الثَّانِي جَاهِزٌ...

وَقَفَزَتْ الغَوَّاصَـةُ الصَّغِيرَةُ إِلَى الأَمَـامِ، لَحْظَـةَ انْطِلاَقِ الصَّارُوخِ مِن خَلْفِهَا، وَاهْتَزَّتْ.... ثُمَّ دَوَّى الانْفِجَارُ...

وَنَظَرَ مِيخَائِيلُ إِلَى أَعْلَى، فَرَأَى مُقَدِّمَةَ المَرْكَب :

- أَلَم أَقُـلْ لَـكِ ؟! لَقَـدْ زَادَتْ سُرْعَتُنَـا بِـانْطِـلاَقِ الصَّـارُوخَيْنِ مِنَ الْخَلْفِ : حَـاوِلِي الآنَ أَن تَخْرُجِي مِن قَبْضَةِ التَّيَّار...

وَأَدَارَتْ رَنْدَة العَجَلَةَ إِلَى أَقْصَى الْيَمِينِ، فَإِذَا بِالْغَوَّاصَـةِ تَخْرُجُ مِن تَحْتِ الْمَرْكَبِ، كَـدِلْفِين مِن صُلْبٍ وَزُجَـاجٍ ! وَتَبْتَعِدُ عَن مَجَالِ جَاذِبِيَةِ الشَّبَكَة الضَّخْمَة...

وَأَطْلَقت «رَنْدَة رِيم» ضَحْكَةً عَالِيَةً، وَصَـاحَتْ صَيْحَـةً

انْتِصَارٍ، وَهِيَ تُلَوِّحُ بِقَبْضَتِهَا لِلْبَاخِرَةِ...

وَتَنَفَّسَتِ الدُّكْتُورَةُ (نَبِيهَةُ) بِارْتِيَاحٍ كَبِيرٍ، بَعْدَ لَحَظَاتِ التَّوَتُّرِ وَالرُّعْبِ الشَّدِيدِ الَّتِي مَرَّتْ بِهِمْ. وَكَانَتْ تَبْتَسِمُ رَاضِيَةً وَتُرَدِّدُ :

ـ مَرْحَى، رِيم ! مَرْحَى (مِيخَائِيل) ! لَوْلاَ سُرْعَةُ بَدِيهَتَيْكُمَا وَمُبَادَرَتُكُمَا لَكَانَتِ ابْتَلَعَتْنَا هَذِهِ الشَّبَكَةُ الْمَلْعُونَةُ، أَوْ طَحَنَنَا رَقَّاصُ الْمَرْكَبِ !

وَمَرَّتِ الشَّبَكَةُ الَّتِي صَارَتْ حِبَالاً تَنْقَطِعُ وَتَحْتَرِقُ تَحْتَ الْمَاءِ، وَهِيَ تُوشِكُ أَن تَنْفَصِلَ عَنِ الْمَرْكَبِ، فَلاَحَظَتِ الدُّكْتُورَة ضِيقَ عُيُونِهَا :

ـ انْظُرْ ! انْظُرْ إِلَى تِلْكَ الشَّبَكَةِ ! إِنَّ عُيُونَهَا ضَيِّقَةٌ، لا تَكَادُ تَسْمَحُ حَتَّى لِلرَّمْلِ بِالْخُرُوجِ ! انْظُرْ إِلَيْهَا كَيْفَ تَكْشِطُ الْقَعْرَ كَشْطاً، وَتَتْرُكُهُ صَحْرَاءَ عَارِيَةً ! رُبَّانُ هَذِهِ الْبَاخِرَة مُجْرِمٌ، تَجِبُ مُعَاقَبَتُهُ !

ولكنّ (ميخائيل) كان مشْغولاً بشَيْءٍ آخَر، أَهَمَّ مِن الشَّبكة بالنّسْبة إليْه... كان قدْ قَرَأَ اسْمَ البَاخِرَةِ مِن خِلاَل المنْظار، وهمْ يخْرجُون من تَحْتِهَا. كَانَ اسْمُهَا «الْكريسْتينا».

وسمعتْهُ الدُّكْتُورَة يُرَدِّدُ كَلِمَةَ (الْكْرِيسْتِينَا) فَسَأَلَتْهُ :

ـ ماذا قُلْت، يَا (مِيخَائِيل) ؟!

ـ هذه البَاخِرَةُ اسْمُهَا (الْكْرِيسْتِينَا) وَهُوَ اسْمٌ أَعْرِفُه !

فظهر الاهْتِمَامُ عَلَى الدُّكْتُورَة :

ـ بِمَاذَا يُذَكِّرُكَ ؟

ـ لاَ أَتَذَكَّرُ الآنَ. وَلَكِنَّهُ مَأْلُوفٌ عِنْدِي...

وَعلَى ظَهْرِ المَركَبِ، حَدَثَتْ ضَجَّةٌ كَبِيرَةٌ، وَأَمَر الرُّبَّانُ بإِسْكَاتِ المُحَرِّكَاتِ. كَانَ الْجَمِيعُ يَعْتَقِدُ أَنَّ لُغْماً قَدِيماً انْفَجَرَ دَاخِلَ الشَّبَكَةِ، وَفَصَلَهَا عَن الْبَاخِرَة...

وَاقْتَرَبَتْ رَنْدَة بِالغَوَّاصَةِ مِن سَطْحِ الْمَاءِ، وَرَفَعَتِ المِنْظَارَ المُقَرِّبَ، وَأَخَذَتْ بَعْضَ الصُّورِ، كَمَا أَخَذَتْهَا لِعَمَلِيَّةِ ضَرْبِ الشَّبَكَةِ، وَانْفِصَالِهَا عِنِ الْمَرْكَب.

وفي تلْك اللَحْظة، سَمعُوا صوْت بُرْجِ الْمُرَاقَبة صَافِيا داخل الغوّاصة، يسْأَلُ عن أحْوالهمْ، وَحِينَ سَمِعَ المُتَكلّمُ ضحْكة (رنْدة ريم) المعْرُوفةَ، تَأكّدَ مِن أن كُلّ شَيْءٍ عَلَى ما يُرامْ، فلمْ يزدْ عَلى أن قال :

- ارجعُوا الآن.

- 17 -

كَـانَ الـدُّكْتُـور فَـارُوقٌ فِي انْتِظَـارِهِمْ عَلَى الرَّصِيفِ، حينَ طَفَتِ الغَوَّاصَةُ... كَـانَ يُحَرِّكُ رَأْسَـه، غَيْرَ مُوَافِقٍ عَلَى مَا فَعَلَتْهُ (رَنْدَة رِيم)... وَلَكِنِ هَذِهِ تَقَـدَّمَتْ إِلَيْـهِ ضَـاحِكَـةً، وَقَبَّلَتْهُ عَلَى خَدَّيْهِ قَائِلَةً :

ـ الْمُهِمُّ أَنَّنَا خَرَجْنَا مِنْهَا سَالِمِينَ !

وَقَالَتِ الدُّكْتُورَة (نَبِيهَة) :

ـ اسْتَطَعْنَا النَّجَـاةَ بِفَضْلِ (رَنْـدة) وَ(مِيخَـائِيل). فَلَوْلاَ سُرْعَةُ تَفْكِيرِهِ، وَخِبْرَتُهَا مَا كُنَّا نَجَوْنَا !

وَخَرَجُـوا مِن مَرفَـإِ الغَـوَّاصَـاتِ، فَفُـوجِئُـوا بِـالْجَـوِّ

المهْرجاني الاحْتِفالِي، الذي كَانَ يَسُودُ مَدينَةَ الأعْمَاق... كان الفتْيَانُ وَالفتَيَاتُ يَلْبَسُون مَلاَبسَ الرِّيَاضَة وَالرَّقْص، وكان البَنَاتُ يَعْقصْنَ شُعُورَهُنَّ عَلَى أكَالِيلِ الزُّهُور وَالْوَرْد، والجميعُ يَحْمِلُونَ الدُّفُوفَ وَالمَزَاهِرَ وَغَيْرَهَا من الآلاَت المُوسِيقِيَة المَعْرُوفة وَالغَرِيبَةِ... وَالْكُلُّ يَضْحَكُ وَيمْرحُ.

وسَأَل (مِيخَائِيلُ) الدُّكْتُورَ فَارُوقاً عَمّا يَحْدُثُ، فَقَال :

ـ إنَّهَا الذِّكْرَى الثَّلاَثُونَ لتَأْسِيس أوَّل مدينة منْ مُدُن الأعْمَاقِ... وَهِيَ ذِكْرَى خَاصَّةٌ جداً بالنِّسْبَة «لليونُسية»، لأنَّ الاحْتِفَالَ الرَئيسِيَ سَيَتِمُّ فِيهَا، وَسَوْفَ يُذَاعُ عَلَى جميع المُدُنِ الأُخْرَى، وَقَدْ حَضَرَ إِلَيْنَا «الشَيْخُ الأكْبَرُ» لِمُدُن الأعْمَاقِ...

ـ تَعْنِي أَنَّ هُنَاكَ مُدُناً أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ ؟

ـ أَلَم أَقُلْهَا لَكَ ؟

فَتَدَخَّلَتْ رَنْدَة رِيم ضَاحِكَة :

ـ تُوجَدُ أَكْثَرُ مِن خَمْسَةِ آلاف مَدِينَةٍ مُنْتَشِرَةٍ عَلى

أَجْرَافِ القَارَّاتِ الخَمْسِ... وَهِيَ فِي مَجْمُوعِهَا تُكَوِّنُ قَارَّةً سَادِسَةً !

فَسَأَلَ (مِيخَائِيل) الدُّكْتُورَ فَارُوقاً غَيْرَ مُصَدِّقٍ :

ـ صَحِيحٌ يَا دُكْتُور فَارُوق ؟!

فَحَرَّكَ رَأْسَهُ مُوَافِقاً، وَأَضَافَ :

ـ سَتَعْرِفُ الكَثِيرَ عَن قَارَّتِنَا السَّادِسَةِ اليَوْمَ، عِنْدَمَا يُلْقِي الشَّيخُ الأَكْبَرُ تَقْرِيرَهُ العَامَّ...

وَقَاطَعَتْ رَنْدَة رِيم :

ـ احْمَدِ اللَّهَ يَا مِيخَائِيل، إِنَّ القَارَّةَ السَّادِسَةَ لَيْسَتْ مُقَرَّرَةً فِي جُغْرَافِيَةِ الْمَدَارِسِ بِالْيَابِسَةِ ! وَإِلاَّ كُنْتَ سَقَطْتَ فِي الامْتِحَانِ !

فَتَدَخَّلَتِ الدُّكْتُورَةُ (نَبِيهَة) :

ـ مَا كَانَ لِيَسْقُطَ وَلَهُ مِثْلُ هَذَا المُخِّ !

وَتَوَقَّفَ الدُّكْتُورُ فَارُوق فِي مُفْتَرَقِ طُرُقٍ، وَقَالَ مُوَدِّعاً :

ـ لاَبُدَّ أَنَّكُم فِي حَاجَةٍ إِلَى الغَدَاءِ وَالرَّاحَةِ، قَبْلَ الحُضُورِ لِلاحْتِفَالِ. سَنَلْتَقِي إذَن بَعْدَ سَاعَةٍ، فِي القَاعَةِ الْكُبْرَى.

وَوَدَّعَ وَذَهَبَ.

- 18 -

وَفِي المَلْعَبِ الأُولَمْبِي الضَّخْمِ، الـــذِي أُقِيمَ فِيـــه الاحْتِفَالُ، شَاهَدَ (مِيخَائِيل) مَا بَهرَهُ وَأَذْهَلَهُ !

جَلَسَ إِلَى جَـانِبِ (رَنْـدَة رِيم)، وَبَعْضِ صَـدِيقَـاتِهَـا وَأَصْدِقَائِهَا، فِي الْمَكَـانِ الْمُخَصَّصِ لِلشَّبَـابِ فِي سِنِّهِم، وَقَـد امْتَلأَتْ آلافُ المَقَاعِدِ بِأَهْلِ المَدِينَة العِلْمِيـةِ، لاَبِسِين أَجْمَلَ الحُلَلِ. وَكَانَتْ عَلَى صَـدْرِ كُلٍّ وَاحِـدٍ شَـارَةٌ أَوْ صُورَةٌ تُشِيرُ إِلَى اخْتِصَاصِهِ.

وَفَجَـــأَةً، دَقَّتِ الطُّبُـولُ، وَعَـزَفَتِ المُـــوسِيقَى، وَوَقَفَ الجمِيعُ يُنْشِدُونَ نَشِيدَ القَارَّةِ السَّادِسَةِ بِحَمَاسَةٍ وَوَقَارٍ....

وَاسْتَطَاعَ (مِخَائِيل) أَن يَلْتَقِطَ الأَبْيَاتَ اَلتَّالِيَةَ مِن النَّشِيدِ :

«لَنَــــا البَحْرُ نَبنِي عَلَى أَرْضِــــهِ
مَــدَائِنَنَــــا، لاَ عَلَى اليَـــابِسَـــة
نُرَوِّضُـــــــــــــهُ... وَنُطَهِّرُهُ
وَنَجْعَلُـــهُ «قَـــارَّةً سَـــادِسَـــة»



وَنَحْمِي الحَيَـــاةَ بِـــهِ مِن سُمُـــومٍ
مُلَـــوِّثَـــةٍ بِيَـــدٍ طَـــاهِرَة
وَنَحْرُسُ أَعْمَـــاقَـــهُ وَالتُّخُـــومَ
بِعَيْنٍ عَلَى أَمْنِـــهِ سَـــاهِرَة





وبعْد انتهاء النشيد، وقف الشيْخُ الأكْبَرُ، وكَان رَجُلا طويلا مُمْتلئاً أبْيض الرَّأس، بَادي العَافيَة، فرَفَعَ ذراعَيْه بالتَّحيّة للجماهير الّتي بادلَتْهُ التحية بهُتافاتٍ عاليَة : «عَاش الشيخُ الأكْبرُ !».

وألْقَى خطاباً طَويلاً، اسْتَعْرَض فيه تَاريخ القَارَة السّادسة مُنْذُ أنْ أسّسَتْها جمَاعَةٌ من الْعُلماء الّذين تنَبَّؤُوا بضيق الأرْض بسُكّانها، بعْد حُدوث الانْفجار السُّكّاني، ليُخفّفُوا الضَغْط على اليابسة، ويبْدؤُوا حمْلة تنْظيم السُّكّان من مُدُن الأعْماق....

وذكر أن «اليُونسية» كانتْ أوّل مدينة بنُوْهَا، واسْتعْرض المصاعب التّقْنية الهائلة التي طرحتْها عمليةُ بناء مدينة تحْت الْماء، وكيفَ تغلّبتْ عليْها حفْنةٌ من العُلماء بالصّبْر، والذّكاء، والبحْث العلْمي المُوفّق، إلى جانب لمْسة إلهيّة من حُسْن الحظِّ !

وعدّد المشاريع الّتي تحقّقتْ في ميْدان تطْهير البحْر

من التَّلْويث، وَمُحَارَبَةِ المُلَوِّثِينَ، وَخُصُوصاً مِن رَبَابنَةِ نَاقلات البتْرُول، وَمَصانِعِ الكِيمَاوِيَات، وَفِي مَيْدَان زِرَاعَةِ الأَعْمَاقِ، وَتَطْوِيرِ نَبَاتَاتِهَا، وَإِتَاحَةِ الغِذَاءِ الكَافِي لِلأَسْمَاكِ، وَالْحِيتَانِ، وَسَائِرِ الحَيَوَان البَحْرِي، لِيَتَكَاثَرَ وَيَضْمَنَ الغِذَاءَ لِسُكَّانِ الأَرْضِ...

وَقَالَ : «إِنَّ عُلَمَاءَنَا قَد تَوَصَّلُوا إِلَى اخْتِرَاعٍ مُدْهِشٍ، وَهُوَ غَوَّاصَةٌ فَرْدِيَةٌ، تَسْتَخْلِصُ الأُوكْسِيجِين مِن مَاء البَحْرِ، وَتَحْمِي صَاحِبَهَا مِن أَخْطَارِ ضَغْطِ الأَعْمَاقِ، وَتُتِيحُ لَهُ حَرَكِيَةً، وَقُدْرَةً عَلَى المُنَاوَرَة، وَسُرْعَةً أَعْلَى مِن سُرْعَةِ الدلْفِين !».

وَسَرَتْ بَيْنَ الجَمَاهِيرِ شَهْقَةُ إِعْجَابٍ عَالِيةٌ، تَلَتْهَا مَوْجَةُ تَصْفِيقٍ وَهُتَافٍ، وَخُصُوصاً بَيْن الشُّبَّانِ مِنَ الْجِنْسَيْن...

وَحَيَّا الشَّيْخُ الأَكْبَرُ جُهُودَ العُلَمَاءِ وَالعَامِلِين، وَحَثَّهُم عَلَى مُضَاعَفَةِ الجَهْدِ لإِعْدَادِ القَّارَّةِ السَّادِسَةِ لِجَمِيعِ الاحْتِمَالاَتِ المُسْتَقْبَلِيَةِ الْقَرِيبَة، وَقَالَ وَالجِدُّ بَادٍ عَلَى

مَلاَمِحِهِ :

«بَعْدَ حَادِثِ مَعْمَلِ «تِشرْنُوبيلْ» الذَّرِّيِّ، وَمَعْمَلِ «يُونْيُون كَارْبَايد» بمَدِينَةِ «بْهُوبَالْ الهِنْدِيَةِ»، وَحَادث المُوَلِّدِ الذَّرِّي في جَزِيرَةِ «الثَّلاَثَةِ أَمْيَالِ» بالْولاَيَاتِ المُتَّحِدَةِ، وَغَيْرِهَا مِن الْحَوَادِثِ الَّتِي لَمْ تَعْرِفْ عَنْهَا الصَّحَافَةُ، وَعَرَفْنَا عَنْهَا نَحْنُ بِطُرُقِنَا الخَاصَّةِ، نَرى أَنَّ إيقَاعَ الْحَوَادِثِ الخَطِيرَةِ الْمُؤَدِّيَةِ إِلَى كَوَارِثَ كُبْرَى، قَدْ بَدَأَ فِي الإِسْرَاعِ... وَكُلُّ ذَلِكَ يَضَعُ عِبْئاً إِضَافياً عَلَى كَاهِلِ «القَارَّةِ السَّادِسَة» فِي مَسْؤُولِيَتِهَا تُجَاهَ الانْسَانِيَةِ...».

وَبَعْدَ انْتِهَاءِ الخِطَاب، وَقَفَتْ فَتَاةٌ حَسْنَاءُ أَمَامَ الْبُوقِ، وَأَخَذَتْ تُنَادِي بِبَعْضِ الأَسْمَاءِ مِن لاَئِحَةٍ، وَتَطْلُبُ مِن أَصْحَابِهَا القُدُومَ إِلَى مِنَصَّةِ الشَّيْخِ الرَّئِيس...

وَفُوجِئَتْ «رَنْدَة رِيم» بِسَمَاعِ اسْمِهَا، فَقَفَزَتْ فِي مَكَانِهَا فَاتِحَةً فَمَهَا، وَنَظَرَتْ إِلَى (مِيخَائِيل) سَائِلَةً :

- أَنَا ؟! هَلْ طَلَبَنِي أَنَا ؟!

- نَعَمْ... أَنْتِ... قُومِي.

وَأَمْسك بيدِهَا، وَأَوْقَفَهَا، فَذَهَبَتْ بَيْنَ تَصْفِيقِ زَمِيلاَتِهَا وَزُمَلاَئِهَا فِي الصَّف، وَهِي تَضْحَكُ وَتَقُول :

- وَلَكِن، مَاذَا فَعَلْتُ ؟!

وَوَقَفَ الشَّيْخُ الرَّئِيسُ يُعَلِّقُ الأَوْسِمَةَ عَلَى صُدُورِ المَدْعُووِينَ، وَالفَتَاةُ تَذْكُرُ مُنْجَزَاتِهِم، وَدَرَجَةَ الْوِسَامِ، حَتَّى جَاءَ دَوْرُ «رَنْدَة رِيم» فَقَالَتِ الفَتَاةُ :

- وِسَامُ الشَّجَاعَةِ وَالثَّبَاتِ فِي وَجْهِ الخَطَرِ المُفَاجِئِ، وَمُكَافَحَةِ الصَّيْدِ المُحَرَّمِ...

وَنَظَرَ (مِيخَائِيل) إِلَى الشَّاشَةِ الضَّخْمَةِ، المُعَلَّقَةِ فِي جَوِّ المَلْعَبِ، وَالَّتِي كَانَتْ تَظْهَرُ عَلَيْهَا وَقَائِعُ الاحْتِفَالِ مُكَبَّرَةً، فَرَأَى وَجْهاً يَعْرِفُهُ جَيِّداً... وَجْهاً لَمْ يَكُنْ قَدْ رَآهُ

مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ ! وَجْهَ أَبيهِ نَديم شيريفيان الَّذي كَانَ يظُنُّ أَنَّهُ ماتَ !

انْقلَبَ قَلْبُهُ وخفقَ بشدَّةٍ... ووقف في مكانه، يبْحَثُ عَن أَبيهِ، وَلكن أَيْنَ هُو من بيْن آلاف الْوُجُوه هذه ؟ لَوْ أَنَّهُ فَقَط يعْرفُ الكَاميرا التي الْتقطتْهُ ! وَلكنَّها عشَراتُ الكَاميرَاتِ !

وَخَطَرَ ببَالِهِ أن يَذْهَبَ إلى الْمِنَصَّة الرَّئيسيَة الَّتي تَتَرَكَّزُ عَلَيْهَا الكَامِيرَات وَالأَضْوَاءُ، لَعَلَّهُ يَظْهَرُ عَلى الشَّاشَة وَيَرَاهُ أَبُوهُ !

كَانَتْ (رَنْدَة ريم) قَد وَصَلَتِ المِنَصَّةَ، وَوَقَفَتْ ضَاحِكَةً، وَهِيَ تَتَسَلَّمُ وِسَامَهَا...

- 19 -

وَفِي اللَّحْظَـةِ التِي قَبَّـلَ فِيهَـا الشَّيْـخُ الرئِيسُ جَبِينَ «رَنْــدَة رِيم»، انْطَفَـأَتِ الأَضْـوَاءُ فَجْـأَةً، وَسَكَتَتْ جَمِيــعُ الآلاَتِ... وَرَانَ الصَّمْتُ عَلَى الحَشْـدِ البَشَرِي الهَـائِـلِ لِمُــدَّةِ بِضْعِ ثَوَانٍ كَأَنَّهَا الزَّمَانُ !

وَاشْتَعَلَ النُّورُ الاحْتِيَـاطِيُّ الخَـافِقُ، وَارْتَفَعَ صَوْتٌ فِي الْبُوقِ :

«الرَّجَـاءُ مِن جَمِيعِ أَفْرَادِ فِرْقَـةِ الْمُسْتَعْجَـلاَتِ التَـوَجُّـهُ إِلَى الجَنَاحِ خَمْسَـةَ فَوْراً... أُعِيـدُ : الرَّجَـاءُ مِن جَمِيعِ أَفْرَادِ فِرْقَــةِ المُسْتَعْجَـلاَتِ التَـوَجُّــهُ فَـوْراً إِلَى الجَنَـــاحَ رَقم خَمْسَة....».



باب الامن
SECURI

وَنَهَضَ عَـدَدٌ مِنَ الرِّجَـالِ وَالنِّسَـاءِ، وَغَـادَرُوا المَكَـانَ مُسْرِعِينَ... وَبَقِيَ الجَمِيعُ فِي أَمَاكِنِهِمْ يَنْتَظِرُونَ التَّعْلِيمَاتِ، فِي انْضِبَاطٍ تَامٍّ...

وَغَادَرَ المَلْعَبَ الشَّيْخُ الأَكْبَرُ، وَتَبِعَهُ أَعْضَاءُ الْقِيَادَةِ...

وَظَهَرَ عَلَى المَسْرَحِ رَئِيسُ مُنَشِّطِي الحَفْلِ، بِبُـوقٍ فِي يَدِهِ، وَأَخَـذَ يُصْـدِرُ التَّعْلِيمَـاتِ لِفِرَقِ الرَّاقِصِينَ وَالرَّاقِصَـاتِ، لِتَقْدِيمِ عُرُوضِهِمْ...

وَمَا كَـادَتْ تَظْهَرُ صُفُوفُهُم عَلَى قَـاعَـةِ المَلْعَبِ، حَتَّى دوَّى صَوْتُ انْفِجَارٍ مَكْتُومٍ، اهْتَزَّتْ لَهُ أَرْجَـاءُ ٱلمَلْعَبِ، وَسُمِعَ صَرِيرُ سَوَارِيهِ المَعْدِنِيَةِ، وَانْكِسَارِ بَعْضِ الزُّجَاجِ... وَسَقَطَتْ ثُرَيَّا ضَخْمَةٌ، كَانَتْ مُعَلَّقَـةً بِسَقْفِ المَلْعَبِ الْعَـالِي، فَكَـادَتْ تَسْحَقُ بَعْضَ أَفْرَادِ فَرِيقِ الرَّقْصِ...

وَأُصِيبَتْ بَعْضُ الفَتَيَاتِ بِـالْهَلَعِ، فَـأَخَـذْنَ يَصْرُخْنَ فِي هَوَسٍ..!

وتتـالت الاهْتِزَازاتُ، وَسُمِعَ صَـوْتُ انشِقَـاقٍ فِي جِـدَارٍ معْـدني، وهـدير تـدفُّق الْمَـاء، فَـوَقَـفَ بَعْضُ أَفْرَادِ الجُمْهُـورِ الحاضر في حيْرةِ وخوْفٍ، مُنْتَظِرِينَ صُدُورَ التَّعْلِيمَـاتِ مِن أبْواق القيادة...

ولكنَ الأبْـواق التي انْقطَـعَ عَنْهَـا التَيَّـارُ الكَهْرَبَـائِي ظلّتْ صامتةً، تُغذّي بصمْتها الرُّعْبَ وَالهيسْتِيرِيَا...

وبـدأ بعْضُ الأشْخـاص يفْقـدُون رَبَـاطَـةَ جَـأْشِهِم، ويقْفزُون على الصُّفُوف، وَفوْقَ الْكَرَاسِي الفَـارِغَـةِ، مُتَوَجِّهِينَ نحْو أبْواب الْخرُوج الْمُتعَدِّدَة...

وَفي لَحْظَـة، وجَـدَ (مِيخَـائيل) نَفْسَـهُ وَحْـدَهُ، وَسَـطَ القَاعـة، ينْتظرُ ظُهورَ «رَنْـدَة رِيم» لِتَـأْخُـذَ بِيَـدِهِ... وَلَكِنَّهَـا كانتْ قد اخْتفتْ في غَمْرَة الزِّحَـام الهَـادِر، وَبَيْنَ الأَجْسَـامِ التي اسْتَـوْلى عليْهـا الـذُّعْرُ، وفقَـدَتْ انْضبَـاطَهَـا، وَأَصْبَحَتْ قطْعاناً تتدافعُ نحْو أبْواب النَّجَاة..!

واضْطَرَ «ميخـائيلْ» إلى الخُروجِ، هُوَ الآخَرُ، وَالتَّوَجُّـهِ بِشـكْلٍ عشْوائيَ، نحْوَ جناح سُكْناهُ الـذي كـانَ يَعْرِفُـهُ أَكْثَرَ من غيْره، وهُو يبْحثُ بعَيْنه عن (رَنْدَة ريم) وَيُنَادِي باسْمِهَـا لعلّها تسْمعُهُ.

ودخل جَنَـاحَ سُكْنَـاهُ، عَلَى ضَوْءِ الطَّـوَارِئِ الخَـافِتِ، الّذي كَانَ يَتَنَـاقصُ مُهَـدِّداً بـالانْطِفَـاءِ... وَضَـاقَتِ الطَّرِيقُ أمـامــهُ، وأَظْلَمَتْ قَبْـلَ أن يَصِـلَ إِلَى غُرْفَتِــهِ، وَتَـوَقَّفَ عَنِ الْجَرْيِ، وَانْحَـازَ نَحْـوَ الْحَـائِـطِ، لِيَسِيرَ بِمُحَـاذَاتِــهِ حَتَّى لاَ يَصْطَدِمَ بِشَخْصٍ قَادِمٍ، أَوْ بِشَيْءٍ عَلَى الأَرْضِ...

وَسَمِعَ صَوْتَ انْقِصَـافٍ شَـدِيـدٍ أَمَـامَـهُ، وَهَـدِيرِ تَـدَفُّـقِ الْمَاءِ، فاسْتَدَارَ وَطَفِقَ يَرْكُضُ فِي الاتِّجَاه المُعَاكِسِ...

وَبَيْنَمَا هُوَ يَجْرِي خَائِفاً لاَهِثـاً، إِذْ نَزَلَ سِتَـارٌ فُولاَذِيٌّ أَمَامَهُ، وَسَدَّ عَلَيْهِ الطَّرِيقَ... وَاصْطَدَمَ هُوَ بِالْحَائطِ الْمَعْدِنِي اصْطِدَاماً شَدِيداً، وَسَقَطَ مَغْشِياً عَلَيْهِ.

- 20 -

كَـــانَ البَحْرُ فِي جَــزْرِهِ الأَقْصَى، وَالمَــوْجُ صَغِيراً، وَالشَّاطِئُ الرَّمْلِيُ النَّاعِمُ يَمْتَـدُّ عَلَى مَرْمَى الْبَصَرِ فِي اتِّجَـاهِ الشَّمَال.

وَأَشْرَقَتْ شَمْسٌ بَـاهِتَـةُ الأَشِعَّـةِ، عَلَى ثَلاَثَـةِ صَيَّـادِينَ، يَحْمِلُونَ شَبَكَةً طَوِيلَةً، ذَاتَ جَيْبٍ وَاسِعٍ، وَيَتْرُكُونَ بَصَمَـاتِ أَقْدَامِهِم الْحَافِيَةِ عَلَى الرِّمَالِ الْمُبْتَلَّةِ الصَّقِيلَةِ، وَكَأَنَّهُم يَمْشُونَ فَوْقَ مِرآةٍ..!

وَلاَحَ لَهُمْ شَيْءٌ دَاكِنٌ مُلْقىً عَلَى الشَّـــاطِئِ، فَظَنُّــوهُ كُومَـةَ طَحَـالِبَ أَخْرَجَهَـا المَـدُّ... وَلَكِنْ حِينَ اقْتَرَبُوا مِنْـهُ، دَقَّتْ قُلُوبُهُم، فَـأَلْقَواْ بِـالشَّبَكَـةِ مِن فَـوْقِ أَكْتَـافِهِم، وَأَسْرَعُـوا نَحْوَهُ بِدَافِعٍ مِن غَرِيزَةِ الإِنْقَاذِ...

كَـانَ شَـابّـاً فِي حَـوَالِي التَّـاسِعَــة عَشرَة، مُلْقىً عَلَى وَجْهِهِ، وَقَدْ تَهَدَّلَتْ مَلاَبِسُهُ، وَانْغَرَزَتْ أَصَابِعُـهُ فِي الرَّمْلِ فِي



مُحَاوَلَةٍ لِلْخُرُوجِ إلَى الْبَرِّ...

وَجَسَّ كَبِيرُهُمْ نَبْضَهُ، وَأَنْصَتَ إلَى قَلْبِهِ، وَصَاحَ بِرَفِيقَيْهِ :

«إنَّهُ حَيٌّ !».

وَمَدَّ يَدَهُ إلَى الجِرَابِ الْمُشْتَرَكِ، وَأَخْرَجَ «تِيرْمُوساً» أَفْرَغَ مِنْهُ بَعْضَ الشَّايِ السَّاخِنِ فِي غِطَائِهِ، وَأَسْنَدَ الشَّابَّ إلَى صَدْرِهِ، وَأَخَذَ يَسْقِيهِ وَيُكَلِّمُه لِيَصْحُوَ :

«أَفِقْ يَا وَلَدِي، أَفِق وَاشْرَبْ، فَقَدْ نَجَّاكَ اللَّهُ مِن الغَرَقِ !».

وَالْتَفَتَ إلَى أَصْغَرِ الثَّلاثَةِ، وَقَالَ لَهُ :

- عُدْ حَالاً إلَى الْمَدِينَةِ، وَأَخْبِرِ الشُّرْطَةَ، وَرِجَالَ الْمَطَافِئِ، وَسَائِقَ سَيَّارَةِ الإسْعَافِ...

فَانْطَلَقَ الشَّابُّ يَعْدُو...

وَتَعَاوَنَ الْبَاقِيَانِ عَلَى نَزْعِ مَلاَبِسِ الشَّابِّ المُبْتَلَّةِ الثَّقِيلَةِ، وَأَلْبَسَاه مَلاَبِسَهُمَا الْجَافَّةَ...

- 21 -

وَلَمْ تَمْضِ نِصْفُ سَاعَةٍ، حَتَّى كَانَ الشَّابُّ فِي غُرْفَةِ إِنْعَاشٍ بِمُسْتَشْفَى الَمدِينَةِ، وَقَدْ فَتَحَ عَيْنَيْهِ، وَمَسَحَ بِهِمَا مَا حَوْلَهُ، وَأَخَذَ يَسْأَلُ بِصَوْتٍ ضَعِيفٍ :

ـ أَيْنَ أَنَا ؟

وَحَضَرَ عَمِيدُ الشُّرْطَةِ، وَتَبَادَلَ مَعَهُ حَدِيثاً قَصِيراً، عَلِمَ مِن خِلاَلِهِ هُوِيَةَ الشَّابِ الرَّسْمِيَةَ، فَكَتَبَ مَحْضَرَهُ، وَاتَّصَلَ بِقِيَادَةِ الْبَحْرِيَةِ فِي الْمِنْطَقَةِ.

وَجَاءَتْ طَائِرَةٌ عَمُودِيَةٌ، نَقَلَتْهُ إِلَى الْمُسْتَشْفَى العَسْكَرِي بِالْعَاصِمَةِ، حَيْثُ وُضِعَ فِي غُرْفَةٍ بِجَنَاحٍ خَاصٍ،

وَضُرِبَتْ عَلَيْهِ حِرَاسَةٌ مُشَدَّدَةٌ .

وَزَارَهُ رَئِيسُ اَلْمَحْكَمَةِ، وَمَعَهُ خَالُهُ، فَحَكَى لَهُمَا قِصَّتَهُ، مُنْذُ الْتِحَاقِهِ بِالْخَافِرَةِ، مَعَ الْقَائِدِ (سِيبَانْكَان)، وَكَيْفَ ضَرَبَهُ الرَّقِيبُ (بْرُونْزَان) بِرَأْسِ الرَّشَّاشِ، وَأَلْقَى بِهِ فِي البَحْرِ، أَثْنَاءَ مَعْرَكَةٍ مَعَ مَرْكَبٍ مَجْهُولٍ، وَكَيْفَ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَدِينَةِ الأَعْمَاقِ، وَمَا رَآهُ فِيهَا من أَشْخَاصٍ، وَأَعْمَالٍ، وَأَحْدَاثٍ...

وَلاَحَظَ، حِينَ انْتَقَلَ إِلَى الحَدِيثِ عَن مَدِينَةِ الأَعْمَاقِ، أَنَّ رَئِيسَ المَحْكَمَةِ وَخَالَهُ بَدَآ يَتَمَلْمَلاَنِ فِي مَقْعَدَيْهِمَا، وَيَنْظُرَانِ إِلَى بَعْضِهِمَا الْبَعْضِ فِي حَرَجٍ.

وَاضْطُرَّ خَالُهُ إِلَى مُقَاطَعَتِهِ قَائِلاً :

ـ اسْتَرِح الآنَ... وَلاَ تَحْكِ هَذَا لأَحَدٍ بِالْمَرَّة، أَسَمِعْتَ ؟

وَأَدْرَكَ (مِيخَائِيل) أَنَّهُمَا لَمْ يُصَدِّقَاه، فَقَالَ مُنْزَعِجاً :

ـ أَتَعْتَقِدَانِ أَنَّنِي أَهْذِي ؟ وَاللَّهِ مَا قُلْتُ إِلاَّ

الْحقيقةَ ! وَشيْءٌ آخَرُ لَمْ أُرِدْ أَنْ أَقُولَـهُ لَكُم، وَهُوَ أَنَّنِي رَأَيْتُ أبي فِي مَدِينَةِ الأَعْمَاق ! إِنَّـهُ مَـا يَزَالُ عَلَى قَيْـدِ الحَيَـاةِ ! وَلَكِنَّنِي لَمْ أَسْتَطِـع الاتِّصَـالَ بِـهِ، رَأَيْتُـهُ فَقَـطْ عَلَى شَـاشَـةِ التِّلفِزْيُون الداخِلِي، قُبَيْلَ الزِّلْزَال بقَلِيلٍ !

فَـوَضَـعَ رَئِيسُ الْمَحْكَمَـةِ يَـدَهُ عَلَى يَـدِ (مِيخَـائِيـل)، وقَالَ مُهَدِّئاً :

ـ إِنَّنَـا نُصَـدِّقُـكَ... وَلَكِنَّنَـا نَخْشَى أَلاَّ يُصَـدِّقَـكَ الآخَرُونَ... لاَ تَنْسَ أَنَّ هَـدَفَنَـا الأَسَـاسِيَ هُـوَ جَمْـعُ أَدِلَّـةِ الاتِّهَامِ ضِدَّ الْقَائِدِ (سِيبَانْكَان)، لِلْقَبْضِ عَلَيْهِ، وَإِحَـالَتِـه عَلى الْعَـدَالَـةِ... وَإِذَا قُلْتَ إِنَّـكَ كُنْتَ فِي مَـدِينَـةٍ تَحْتَ الْبَحْرِ، وَرَأَيْتَ فِيهَـا وَالِـدكَ الـذِي اخْتَفَى فِي مَعْرَكَـةٍ مُنْـذُ شُهُورٍ، فَأَخْشَى أَنَّهُ لَنْ يُصَدِّقَكَ أَحَدٌ، بَلْ رُبَّمَا اتَّهَمُوكَ بِالتَّخْرِيفِ !

وَأَضَافَ خَالُهُ :

ـ لِذَلِكَ أَوْصَيْتُكَ بِأَلاَّ تُعِيدَ هَذَا عَلَى أَحَدٍ !

فَقَالَ مِيخَائِيل :



ـ مَعْنَى هَذَا أَنَّكُم لَن تَقْبِضُوا عَلَى (سِيبَانْكَان) ؟!

فَقَالَ الرَّئِيسُ :

ـ أَنَا آسِف... فَلَيْسَ بَيْنَ أَيْدِينَا دَلِيلٌ وَاحِدٌ يَقِفُ أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ ! وَالْقَائِدُ (سِيبَانْكَان) لَهُ أَصْدِقَاءُ كَثِيرُونَ. وَعَلَيْنَا أَن نَصْبِرَ وَنَنْتَظِرَ الفُرْصَةَ.

وَقَالَ خَالُهُ :

ـ الآنَ سَتَذْهَبُ إِلَى الدَّارِ، أُمُّكَ تَنْتَظِرُك. إِذَا سَأَلَكَ أحدٌ أَيْنَ قَضَيْتَ الْمُدَّةَ بَيْنَ سُقُوطِكَ من الْخَافِرَةِ وَالْعُثُورِ عَلَيْكَ، فَقُلْ لَهُم «لاَ أَدْرِي»، وَأَنَّكَ كُنْتَ فَاقِدَ الْوَعْيِ، حَتَّى وَجَدْت نَفْسَكَ فِي الْمُسْتَشْفَى.

- 22 -

رَفَضَتْ «الزاهيـة» أَن تُصَـدِّقَ أَنَّ ابْنَهَـا «مِيخَـائِيـل» - نُوري - مَا يَزَالُ علَى قَيْدِ الْحَيَاةِ.

كَـانَتْ تُصَلِّي، حِينَ دَخَلَتْ عَلَيْهَـا ابْنَتُهَـا الصُّغْرَى تَصِيحُ :

- أَخِي نُوري ! أَخِي نُورِي يَـا أُمِّي، إِنَّـهُ عَـادَ، إِنَّـهُ رَجَعَ... رَجَع !

حرَّكَت السَّيدَةُ الحَزِينَـةُ رَأْسَهَـا غَيْرَ مُصَـدِّقَـةٍ - فَقَـدْ رُزِئَتْ فِي زَوْجِهَا، قَبْل أَقَلَّ مِن عَـامٍ، ثُمَّ فِي وَلَـدِهَـا الْبِكْرِ الْعَزِيـز، فَـاسْتَسْلمتْ لِقَضَـاء اللَّـهِ وَمَشِيئَتِـهِ... فَـالمَـوْتَى لاَ

يرْجعُونَ !

وحِينَ دَخَلَ عَلَيْهَا ابْنُهَا، فِي مُصَلاَّهَا، كَادَ يُغْمَى عَلَيْهَا، حَتَّى إِنَّهَا لَمْ تَسْتَطِعْ الْوُقُوفَ لِعِنَاقِهِ !

وَتَحَوَّلَ جَوُّ الْحُزْنِ الذِي كَانَ يُخَيِّمُ عَلَى العَائِلَةِ إِلَى فَرَحٍ حَقِيقِيٍّ...

وَعَمِلَ (مِيخَائِيل) بِوَصِيَّةِ خَالِهِ، وَرَئِيسِ المَحْكَمَةِ، فَلَمْ يَقُصَّ عَلَى أَحَدٍ شَيْئاً مِن الْعَجَائِبِ الَّتِي رَآهَا فِي «مَدِينَةِ الأَعْمَاقِ»، وَلَمْ يَجْرُؤْ عَلَى أَنْ يَذْكُرَ لأُمِّهِ وَلأَفْرَادِ عَائِلَتِهِ أَنَّهُ رَأَى صُورَةَ وَالِدِهِ فِي حَفْلِ (اليونِسِيةِ)، وَأَنَّهُ مَا يَزَالُ عَلَى قَيْدِ الْحَيَاةِ. فَقَدْ يَكُونُ ذَلِكَ الْوَجْهُ الذِي رَآهُ مُجَرَّدَ شَبِيهٍ لأَبِيهِ، وَيُقَالُ إِنَّهُ «يَخْلُقُ مِن الشَّبَهِ أَرْبَعِين !».

- 23 -

وَفِي غُرْفَةِ القِيَـادَةِ بِخَـافِرَةِ «الجُمَـانَـة»، تَلَقَّى الْقَـائِـدُ (سِيبَـانْكَـان) مُكَـالَمَـةً لاَ سِلْكِيَـة مِن زَوْرَقٍ قَرِيبٍ، فَقَطَّبَ حَاجِبَيْـهِ، وَهَمَسَ لِمُسَـاعِـدِهِ الرَّقِيب (بْرُونْزَان)، وَهُوَ عَـابِسُ اَلْوَجْهِ :

ـ مِيخَائِيل شِيرِيفْيَان !؟

ـ مَالَهُ ؟

ـ عَثَرُوا عَلَيْهِ.

ـ حَيّاً ؟!

ـ نَعَمْ...



ثُمَّ عَـادَ إِلَى الاسْتِمَـاعِ، فَـانْفَرَجَتْ أَسَـارِيرُ وَجْهِـهِ، وَلَمَعَتْ عَيْنَاهُ الْمَاكِرَتَان.

وَشَكَرَ مُكَلِّمَهُ فِي الـزَّوْرَقِ الآخر، وعلَّـقَ السَّمَّـاعَـةَ، وَقَالَ (بْرُونْزَان) :

- لاَ تَقْلَقْ، لاَ خَوْفَ علَيْنا. إِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً ضِدَّنَا... مَحَاضِرُ الدَّرَكِ، وَالبَحْرِيَةِ، وَالمحْكَمة العسْكَرِيـة كُلُّهـا تَتَّفِقُ مَعَ مَحْضَرِنَا فِي أَنَّه سَقَطَ فِي الْبحْرِ، أَثْنَاء مَعْرَكَة مَعَ مُهَاجِم مَجْهُولٍ، وَفُقِدَ...

وَنَظَرَ إِلَى الرَّقِيبِ بعَيْنَيْنِ نِصْفِ نَائِمتيْنِ، وقال :

- سَتَـأْخُـذُ هَـدِيَّـةً، وَنَـذْهَبُ لِزِيَـارَتِـه هَـذا الْمَسَـاءَ، وَتَهْنِئَتِهِ بِالسَّلاَمَةِ.

فَكَّر (بْرُونْزَان) قَلِيلاً، وَأَجاب :

- لاَ أَعْتَقِدُ أَنَّ ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَة !

- لِمَاذَا ؟

- إِذَا ذَهَبْنَا إِلَى بَيْتِه، فَسَنَكْتَشِفُ أَنَّهُ لَيْس (ميخَـائِيل

شِيرِيفْيَان...) فَـذَلِـكَ ٱسْمُـهُ المُسْتَعَـارُ ! وَسَيَكُونُ فِي ذَلِـك حَرَجٌ لِلطَّرَفَيْنِ !

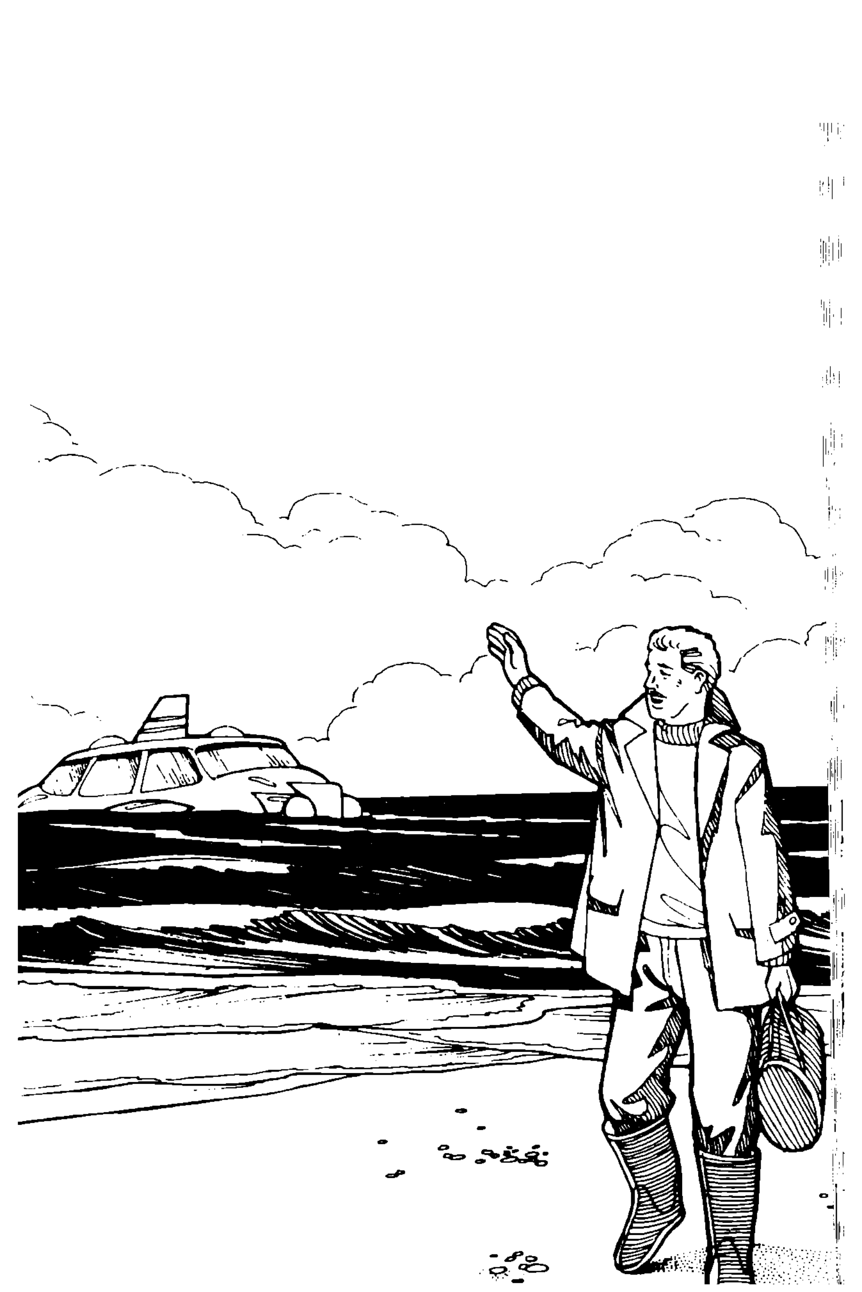
زَمَّ (سِيبَانْكَان) شَفَتَيْهِ وَقَالَ :

ـ صَـدَقْـتَ... كَيْفَ لَمْ يَخْطُرْ ذَلِـكَ بِبَـالِي ؟! إِذَنْ سَنَكْتَفِي بِإِرْسَـالِ بَـاقَـةِ وَرْدٍ، وَعُلْبَـةِ شُـوكُـولاَتَــه، بِـاسْمِ (مِيخَـائِيل)، إِلَى المُعَسْكَرِ، وَهُمْ يُرْسِلُونَهَا إِلَيْـهِ... فَلاَ يَلِيقُ أَنْ يَسْكُتَ الْقَائِدُ فِي مَنَاسَبَةٍ كَهَذِهِ !

- 24 -

خَرَجَ مِن سَطْحِ الْمَاءِ مِنْظَارٌ مَسَحَ الشَّاطِئَ الهَادِئَ الْمُظْلِمَ... لاَ مَرَاكِبَ وَلاَ بَشَرَ... ثُمَّ صَعِدَتْ غَطَّاسَةٌ صَغِيرَةٌ أَخَذَتْ تَقْتَرِبُ مِن الشَّاطِئِ بِهُدُوءٍ...

وَعِنْدَ مُحَاذَاتِهَا لِلرَّمْلِ، انْفَتَحَ مِنْهَا بَابَانِ عَلَى شَكْلِ جَنَاحَيْنِ، وَخَرَجَ «نَدِيم شِيرِيفْيَان»، صُحْبَةَ رَجُلٍ آخَرَ، وَقَفَزَا إِلَى الرَّمْلِ، وَوَدَّعَ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ يَلْبَسُ بِدْلَةَ «اليُونُسِية» الرَّسْمِيَةَ، صَاحِبَهُ «نَدِيم شِيرِيفيان»، وَسَلَّمَهُ كِيساً قُمَاشِياً، بِهِ أَمْتِعَتُهُ، وَعَادَ إِلَى الْغَطَّاسَةِ، وَأَقْفَلَ الْبَابَيْنِ وَغَاصَ.



وَنظَرَ (نَـدِيم)، حَوَالَيْـه، ثُمَّ إِلَى الْمَـدِينَـةِ الَّتِي كَـانَتْ أَضْوَاؤُهَا تَتَلأْلأُ مِن بَعِيدٍ، وَتحَرَّكَ قَاصِداً منْزِلَهُ، وَقَد انثَـالَتْ عَلَيْهِ أَفْكَارٌ مُتَضَارِبَةٌ... كَانَ يَتَخَيَّلُ الدَّهْشَةَ التِي سَتَسْتَقْبِلُـهُ بِهَـا زَوْجَتُـهُ وَأَوْلاَدُهُ، وَعَشَرَاتِ الأَسْئِلَـةِ التِي لَنْ يَسْتَطِيـعَ الجَوَابَ عَلَيْهَا بِالْحَقِيقَةِ، لأَنَّ الحَقِيقَةَ أَغْرَبُ مِن الْخَيَال...

وَرَتَّبَ فِي ذِهْنِـهِ الْقِصَّـةَ التِي أَمْلاَهَـا عَلَيْـهِ المُشْرِفُ عَلَى عِلاَجِـهِ فِي مَـدِينَـةِ «اليُـونُسِيـة». سَيَحْكِي لِجَمِيـعِ مَن يَسْأَلُونَهُ أَنَّهُ أُصِيبَ بِرَصَاصَةٍ فِي رَأْسِهِ. حَدَثَ لَهُ عَلَى إِثْرِهَـا شَلَـلٌ كَـامِـلٌ. وَالْتَقَطَـهُ بَحَّـارَةُ حَـامِلَةِ طَـائِرَاتٍ أَجْنَبِيَـةٍ، وَوَضَعُوهُ تَحْتَ العِلاَجِ، حَتَّى شُفِيَ تَمَاماً، وَاسْتَرْجَعَ ذَاكِرَتَـهُ وَقُدْرَتَهُ عَلَى النُّطْقِ، ثُمَّ أَعَادُوهُ...

وَمَشَى فِي دُرُوبِ المَدِينَةِ، بَعْدَ صَلاَةِ الْعِشَاءِ، دُونَ أَنْ يَتَعَرَّفَهُ أَحَدٌ مِن الْمَارَّةِ القَلاَئِلِ.

وَطَرَقَ بَـابَ مَنْـزِلِـهِ، فَكَـانَ أَوَّلَ مَن فَتَحَـهُ ابْنَتُـهُ الصَّغِيرَةُ. وَحِينَ رَأَتْـهُ فَتَحَتْ فَمَهَـا لِلْمُفَـاجَـأَةِ، ثُمَّ انْفَجَرَتْ

بَاكِيَةً :

ـ بَابَا ـ بَابَا ـ بَابَا...

وَارْتَمَتْ عَلَيْـهِ وَاحْتَضَنَتْـهُ، فَطَـوَّقَهَـا هُـوَ بِـذِرَاعَيْـهِ، وَأَجْهَشَ بَاكِياً...

وَسَمِعَ الجَمِيعُ صِيَـاحَ الفَتَـاةِ، فَتَرَكُوا المَـائِـدَةَ، وَقَـامُوا لِيَجِـدُوا اَلْمُفَـاجَـأَةَ الكُبْرَى.. وَأُغْمِيَ عَلَى «الـزَّاهِيَـةِ» حِينَ تَأَكَّدَتْ مِن أَنَّهُ حَقِيقَةً زَوْجُهَا.

وَبِسُرْعَةِ بَدِيهَةٍ كَبِيرَةٍ، أَقْفَلَ (مِيخَـائِيل) الْبَـابَ، وَدَفَعَ الجَمِيعَ إِلَى الغُرْفَةِ الدَّاخِلِيَةِ، وَقَالَ لِوَالِدِهِ وَلِلْجَمِيعِ :

ـ يَجِبُ أَلاَّ يَعْرِفَ أَحَـدٌ بِظُهُورِكَ حَتَّى نُخْبِرَ السيـد رَئِيسَ الْمَحْكَمَةِ؛ فَـأَنْتَ هُنَـا فِي خَطَرٍ كَبِيرٍ. وَخُصُوصـاً إِذَا عَلِمَ بِرُجُوعِكَ الْقَائِدُ (سِيبَانْكَان) وَعِصَابَتُهُ.

وَهَمَّ بِالْقِيَامِ، فَسَأَلَهُ وَالِدُهُ :

- إِلَى أَيْنَ ؟

- إِلَى خَالِي لإِخْبَاره بِمَقْدَمِكَ !

- لاَ تَفْعَلْ ! وَاجْلِسْ حَتَّى نَضْبِطَ قِصَّةَ اخْتِفَائِي وَظُهُورِي، وَنَتَّفِقَ عَلَى جَمِيعِ التَّفَاصِيل.

- أَلاَ تَنْوِي أَنْ تَقُولَ لَهُمْ الحَقِيقَةَ.

- مَا جَدْوَى الْحَقِيقَةِ إِذَا لَمْ يُصَدِّقْهَا أَحَدٌ ؟!

- وَمَاذَا سَتَقُولُ لَهُمْ ؟

- سَأَقُولُ لَهُمْ إِنَّنِي تَعَرَّضْتُ لَعَمَلِيَّةِ اغْتِيَالٍ، وَأُصِبْتُ فِي رَأْسِي بِرَصَاصَةٍ، وَسَقَطتُ إِلَى الْبَحْرِ بِاللَّيْلِ. وَلِحُسْنِ حَظِّي، كُنْتُ أَلْبَسُ طَوْقَ نَجَاةٍ، يَنْتَفِخُ آلِياً بِمُجَرَّدِ سُقُوطِ لاَبِسِهِ فِي الْمَاءِ. وَلِحُسْنِ حَظِّي، كَذَلِكَ، أَنْ المَوْجَ وَالرِّيحَ أَبْعَدَانِي عَن مَكَانِ سُقُوطِي، فَلَمْ يَعْثُرْ عَلَيَّ (سِيبَانْكَان) لِيَتَأَكَّدَ مِن مَوْتِي.. وَهَذَا كُلُّهُ حَقِيقَةٌ... أَمَّا مَا سَنُضِيفُ إِلَيْهَا فَهُوَ أَنَّ حَامِلَةَ طَائِرَاتٍ أَجْنَبِيَةً عَثَرَتْ عَلَيَّ فِي

الصَباح، وأَخذتْني، وأنا في حالَة غَيْبُوبَة، واسْتَطاع أطبَاؤُها إنْقاذي، وإخْراج الرَصاصة من دمَاغِي، وبَقِيتُ معهَمْ حتَّى اسْتَرْجعْتُ وعْيِي، وذاكرتي، وقُوَتِي، وأعَادُوني إلى بلدي...

ونظر إلى (ميخائيل) وقال

ـ وهكذا لن يشُكَّ أحدٌ في شهادتي ضدَّ (سِيبَانْكَان) بحُكْمِ الْجُنُون أو الْوسْواس !

فقال (ميخائيل) :

ـ ولكنّني رأيتُك في «اليُونسية !» رَأَيْتُ وَجْهَك واضحا على شاشة التلفزيون، في الْملْعب الكَبير، أثْنَاءَ الاحْتفال بعيد القارَة السّادسة، قبيل قليل من الزِلْزَال الذي رمى بنا إلى الخارج !

فتصلَب وجه النديم وقال بجدٍ بارد :

ـ انْس كلّ ذلك يا (نُوري) ! وكأنّه حُلْمٌ من الأحْلام... ولا تعدْ إلى التَفكير فيه أبدا أبدا... اتّفقْنا ؟

فحرّك (ميخائيل) رأسه طائعا...

- 25 -

خرج (ميخائيل) يَغْدو إلى دار خاله، ليُخبرَهُ بعَوْدَةِ أبيه، بعْد أن أذِن لَهُ هَذا...

كفَّ خالُهُ عن المَضْغ، ورفع يدَهُ عن الطَعام، ونظَر إليْه نظْرة رثاءٍ وحسْرةٍ، وكأنّهُ يقولُ : «مسْكينٌ هذا الفتى ! لاَبُدَّ أنَّهُ أُصيب في عقْله !»

ونَهَضَ كارهاً ليَغْسلَ يديْه على مَهل، و(ميخائيل) يحترقُ من الاستعْجال، ويُردّدُ :

ـ لاَبُدَّ أن نُخبر السَيد رئيس المحْكَمةِ ! هلْ نَمُرُّ، عليْه، ونأْخذُهُ معَنا إلى الدّار ؟

وَاسْتَمْهَلَهُ خَالُهُ :

ـ سَأَذْهَبُ أَوَّلاً لِلاطْمِئْنَانِ عَلَى صِحَّةِ الْوَالِدِ... وَبَعْدَ ذَلِكَ، نُخْبِرُ السَّيِّدَ رَئِيسَ المَحْكَمَةِ.

وَأَقْفَلَ الْبَابَ عَلَى جَمِيعِ اعْتِرَاضَاتِهِ، وَهُوَ يَمْسَحُ يَدَيْهِ.

وَأَوْقَفَ السَّيَّارَةَ عَلَى بَابِ دَارِ أُخْتِهِ، وَخَرَجَ كَارِهاً، مُتَوَقِّعاً الْمَشْهَدَ المُحْرِجَ التَّالِيَ الذِي سَيُصَدَمُ فِيهِ مِيخَائِيل بِحَقِيقَةِ مَرَضِهِ، حِينَ يَكْتَشِفُ أَوْهَامَ عَوْدَةِ أَبِيهِ !

وَمَا كَادَ يَنْفَتِحُ البَابُ، حَتَّى بَادَرَتْهُ الفَتَاةُ الصَّغِيرَةُ صَائِحَةً، وَغَيْرَ عَابِئَةٍ بِتَحْذِيرَاتِ الْكِبَارِ :

ـ بَابَا.. بَابَا رَجَعَ ! إِنَّهُ هُنَا !

وَلَمْ يَكَدْ يُصَدِّقُ حَتَّى رَأَى زَوْجَ أُخْتِهِ (نَدِيم)، بِقَامَتِهِ الْعَرِيضَةِ، يَقِفُ أَمَامَهُ بَاسِماً، فَاتِحَ الذِّرَاعَيْنِ لِلتَّرْحِيبِ بِهِ، فَجَحَظَتْ عَيْنَاهُ لِلْمُفَاجَأَةِ، وَأُرْتِجَ عَلَيْهِ !

وَعَلَى إِثْرِ مُكَالَمَةٍ هَاتِفِيَةٍ، حَضَرَ رَئِيسُ المَحْكَمَةِ إِلَى بَيْتِ «نَدِيم شِيرِيفْيَان»، وَهُوَ لاَ يَكَادُ يَصَدِّقُ..

وَاجْتَمَعَ (بِنَدِيم) وَابْنِهِ (مِيخَائِيل) عَلَى حِدَةٍ، فَأَكَّدَ لَهُ الأَوَّلُ مَا قَالَهُ ابْنُهُ عَن (مَدِينَةَ الأَعْمَاق)، وَأَخْبَرَهُ بَأَنَّ سَبَبَ غَيْبَتِهِ الطَّوِيلَةِ هُوَ طُولُ العِلاَجِ الذِي أَعَادَهُ إِلَى الحَيَاةِ، بَعْدَ مَوْتٍ حَقِيقِيٍّ !

وَوَصَفَ لَهُ بِدِقَّةٍ مَّا أَصَابَهُ عَلَى أَيْدِي الْقَائِدِ (سِيبَانْكَان) وَأَعْوَانِهِ، حِينَ اعْتَرَضَ عَلَى صَفْقَةِ تَهْرِيبٍ كَبِيرَةٍ وَخَطِيرَةٍ ! وَكَيْفَ أَطْلَقُوا النَّارَ عَلَى رَأْسِهِ لِيَتَأَكَّدُوا مِن مَوْتِهِ، وَرَمَوْا بِهِ إِلَى الْبَحْرِ...



وَتَشَعَّبَ بِهِمْ الْحَدِيثُ عَن مَدِينَةِ «اليُونُسِيَّة» وَأَسْرَارِهَا، وَعَجَائِبِهَا، وَتَفَاصِيلِ الحَيَاةِ فِيهَا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ لِلْخَالِ وَرَئِيسِ المَحْكَمَةِ ظِلُّ شَكٍّ، عَلَى الإِطْلاَقِ، فِي حَقِيقَةِ وُجُودِ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْخَيَالِيَةِ الأُسْطُورِيَةِ العَجِيبَةِ..! فَلَمْ يَكُنْ مُمْكِناً أَنْ يَكُونَ كُلُّ ذَلِكَ مِن صُنْعِ خَيَالِ رَجُلٍ، فِي رَزَانَةِ «نَدِيم» وَتَفْكِيرِهِ العَمَلِيِّ، وَالْوَاقِعِيِّ.

وَمَعَ الثَّالِثَةِ صَبَاحاً، نَظَرَ رَئِيسُ المَحْكَمَةِ إِلَى سَاعَتِهِ، فَفُوجِئَ بِسُرْعَةِ مُرُورِ الْوَقْتِ. وَحَرَّكَ رَأْسَهُ، وَكَأَنَّهُ يُحَاوِلُ إِفْرَاغَهُ مِن عَجَائِبِ مَا سَمِعَ، لِيَرْجِعَ إِلَى الْحَاضِرِ وَالْوَاقِعِ، وَقَالَ :

ـ لاَ يَنْبَغِي، فِي نَظَرِي، أَنْ يُقَالَ شَيْءٌ من هذا أَمَامَ الْمَحْكَمَةِ، أَوْ فِي مَحْضَرِ الْقِيَادَة، فَالْمَسْؤُولُون لَيْسُوا مُسْتَعِدِّينَ لِقَبُولِهِ بَعْدُ... وَسَيَطْعَنْ ذَلِكَ فِي شَهَادَتِكَ ضِدَّ

الْقائِدِ «سِيبَانْكَـان» الَّـذِي لاَ يُمَثِّلُ إلاَّ أحَـدَ رُؤُوسِ الأَفْعَى، فِي عِصَابَةٍ كَبِيرَةٍ مُتَعدِّدَةِ الرُؤُوسِ، وَوَاسِعَةِ النُّفُوذِ...

وَالْتَفَتَ لِيَسْأَلَ الخَالَ الْمُحَامِي :

ـ مَا رَأْيُكَ ؟

فَتَنَهَّدَ الْخَالُ، وَقَالَ :

ـ رَأْيِي أَنَّ كُلَّ مَا سَمِعْنَـاهُ مِن صِهْرِي السيـد (نَـدِيم) وَمِن (نُورِي) لَنْ يَصْمُدَ كَدَلِيلِ اتِّهَامٍ قَوِيٍّ أَمَامَ المَحْكَمَةِ.

فَغَلَى الـدَمُ فِي رَأْسِ (مِيخَـائِيـل) عِنْـدَ سَمَـاعِ ذَلِـكَ، وَقَالَ :

ـ هُنَـاكَ شَـاهِـدٌ عَلَى مَتْنِ خَـافِرَةِ (الجُمَـانَــة) وَهُـوَ الطَّبَّاخُ، فَقَـدْ رَأَى كُلَّ شَيْءٍ. وَهُوَ رَجُلٌ مُومِنٌ يَخْشَى اللَّـهَ، وَيَكْرَهُ عِصَابَةَ سِيبَانْكَان.

فسأل خالُه غير مُقْتنع :

ـ ولماذا لمْ يتقدّمْ للشَهادة طوال هذه الْمدّة ؟!

ـ إنّهُ يخْشى الْعصابة... فإذا ضمنت الْمحْكمةُ الْحماية لهُ ولأفْراد عائلته، يُمْكنُ أن يَشْهدَ !

فتدخَل الأبُ :

ـ لاَ، يا ولَدي... لاَ ينْبَغي أن نُخْرجَ رَجُلاً مِسْكِيناً مثْلَ الطبَّاخ (صيرافِينَ)، والْمَحْكَمَةُ عاجزَةٌ عَن حِمَايَةِ أيِّ إنْسانٍ ضِدَّ جَبَرُوتِ الْعِصَابَةِ... يَجبُ التَّفْكِيرُ فِي حَلٍّ آخرَ...

فَقَالَ مِيخَائيل مُحَاولاً كَبْتَ غَضَبِه :

ـ مَعْنَى هَذَا أنَّنَا سَنَعِيشُ فِي خَوْفٍ دَائِمٍ، وَلَنْ نَسْتَطِيع حتَّى إعْلاَنَ عَوْدَةَ أبينَا إلَيْنَا...

فَتَدَخَّلَ رَئِيسُ المَحْكَمَةِ لِتَهْدِئَتِه :

ـ لاَبُدَّ أن نَجِدَ وَسِيلَةً قَانُونِيَةً لِلْقَبْض عَلَى الْعصَابَة،

وجعل العدالة تأخذ مجراها... ولكن يجب أن نفكر بعقل بارد... اقتناعنا نحن لا يكفي...

لم يكن (ميخائيل) يصغي. كان سهما، وكأنه ينصت إلى صوت داخلي لا يسمعه أحد غيره.

وفجأة، وقف... وصاح :

- وجدتها !

ونظر الرجال الثلاثة إليه... فأضاف :

- إذا لم نستطع إدانة القائد (سيبانكان) بجرائمه السابقة، فسندينه بجريمته القادمة !

فسأل أبوه :

- ما هذا الكلام، يا (نوري) ؟

- سأشرح لكم... لا أحد يعرف بوجودك الآن على قيد الحياة.. وخطتي هي أن تضعك القيادة في المستشفى العسكري، وتعلن أنه عثر عليك فاقد الوعي على الشاطئ، وأنك في غرفة إنعاش لم تستيقظ بعد، ولم تتكلم...

فَسَأَلَ «نَدِيم» غَيْرَ فَاهِمٍ :

ـ وَمَا القَصْدُ مِن كُلِّ هَذَا ؟

وَلَكِنَّ رَئِيسَ الْمَحْكَمَــةِ أَدْرَكَ المَغْــزَى مِن الْخِطَّــةِ، وَتَهَلَّلَ وَجْهُهُ :

ـ أَعْتَقِدُ أَنَّهَا خِطَّةٌ ذَكِيَّةٌ جِداً، يَا مِيخَائِيل !

ـ مَاذَا تَعْنِي، يَا سَيِّدِي الرَّئِيس ؟

فَتَدَخَّلَ الْخَالُ :

ـ سَأَشْرَحُ لَكَ.. سَنَجْعَلكَ طُعْماً لِلْعِصَابَةِ !

وَنَهَضَ الثَّلاَثَةُ تَــارِكِينَ (الســيد نــديم) فَــاغِرَ الْفَمِ، غَيْرَ فَاهِمٍ مَا يُرَادُ بِهِ !

- 26 -

عَلى مَتْنِ «الجُمَانَة»، تَلَقَّى الْقَائِدُ (سِيبَانْكَان) مَكَالَمَـةً لاَسِلْكِيَـةً مِن الْخَـافِرَةِ التِي جَـاءَتْ لِتَخْلُفَـهَ ذَلِـكَ الصَّبَـاح، فَظَنَّ أَنَّهَا نَوْعٌ مِن الْمِزَاحِ الثَّقِيلِ.

- نَدِيم شِيرِيفْيَان ظَهَرَ !

- مَاذَا قُلْتَ ؟!

- قُلْتُ لَـكَ إِن شِيرِيفيَـان ظَهَرَ ! وَهُـوَ فِي غُرْفَـةِ العِنَايَةِ الْفَائِقَةِ بِمُسْتَشْفَى الْقِيَادَةِ !

- إِنَّكَ تَمْزَحُ !

ـ لَيْسَ هَذَا مَوْضُوعاً لِلْمِزَاحِ... مِن حُسْنِ الْحَظِّ، أَنَّهُ مَا يَزَالُ فَاقِدَ الْوَعْيِ لَمْ يَتَكَلَّمْ...

وَسَقَطَ فَكُّ (سِيبَانْكَان) الأَسْفَلُ، وَحَطَّ السَّمَّاعَةَ فِي مَهْدِهَا، دُونَ تَعْلِيقٍ.

- 27 -

وَفِي ظُهْرِ ذَلِكَ اليَوْمِ، كَانَ (نَدِيم شِيرِيفْيَان) مُسْتَلْقِياً فِي سَرِيرٍ بِغُرْفَةِ الْعِنَايَةِ الْفَائِقَة، تَحْتَ خَيْمَةٍ مِنَ البلاسْتِيك الشَّفَّاف، وَعَلَى أَنْفِهِ وَفَمِهِ قِنَاعُ أُوكْسِيجِينٍ، وَقَدْ الْتَصَقَتْ بِذِرَاعِهِ عِدَّةُ أَنَابِيبَ، مَوْصُولَةٍ بِزُجَاجَاتٍ مُعَلَّقَةٍ بِجَانِبِ السَّرِير...

انْفَتَحَ البَابُ، وَأَطَلَّ رَأْسُ القَائِدِ (سِيبَانْكَان) بِوَجْهِهِ الْمُسْتَدِيرِ الْمُحْتَقِنِ، وَعَيْنَيْهِ الدَّامِعَتَيْنِ، وَلِحْيَتِهِ الصَّغِيرَةِ، فَوَقَفَتِ الْمُمَرِّضَة احْتِرَاماً لِبِدْلَتِهِ الْبَحْرِيَةِ الأَنِيقَةِ، وَقُبَّعَتِهِ الرَّسْمِيَّةِ. وَحَيَّاهَا هَامِساً، وسَأَلَهَا :

ـ كيْفَ حَالُ السيد نَديم ؟

فحَرَّكَتِ الْمُمَرِّضَةُ رَأْسَهَا، غَيْرَ مُتَفَائِلَةٍ :

ـ لَمْ يَتَغَيَّرْ مُنْذُ دُخوله.

ـ مِسْكينٌ ! إِنَّـهُ رَجُـلٌ طَيِّبٌ، وَبَحْرِيٌّ مِن الـدَّرَجَـةِ الأُولَى.

وَأَطَلَّ عَلَيْـهِ مِن وَرَاءِ سِتَـارِ البلاستيـك، ثُمَّ نَظَرَ إِلَى الأَنَابيبِ المَوْصُولَةِ بِسَاعِدِهِ، وَأَدْخَلَ يَـدَهُ فِي جَيْبِـهِ، وَأَخْرَجَ محْفَظَتَـهُ، وَأَخَـذَ مِنْهَـا وَرَقَتَيْنِ مَـالِيَتَيْنِ كَبيرَتَيْنِ. وَنَـادَى الْمُمَرِّضَةَ، وَقَالَ لَهَا فِي شِبْهِ أَمْرٍ عَسْكَري :

ـ خُـــذِي هَـــذِهِ الْفُلُـوس، وَاذْهَبي إِلَى مَقْصَفِ الْمُسْتَشْفَى، وَاشْتَرِي صُنْـدُوقَ شُـوكُولاَتَـه لأَتْرُكَـهُ لِلْمَرِيضِ هُنَـا، مَـعَ كَلِمَـةٍ لِيَجِـدَهُ حِينَ يُفِيـقُ... لَم يَكُن لِي وَقْتٌ لأَشْتَرِي لَهُ هَدِيَةً مُنَاسِبَةً، فَقَدْ جِئْتُ رَأْساً مِن البَحْرِ...

وَنَظَرَتِ المُمَرِّضَةُ إِلَى الوَرَقَتَيْنِ بِتَرَدُّدٍ، وَتَمْتَمَتْ :

ـ ولكنْ هَذَا كَثيرٌ عَلَى صُنْدُوقِ شُوكُولاَتَه..

ـ اشْتري بالْبَاقي شَيْئاً لأَوْلاَدِك.

فابْتهجت المرْأَةُ، وَأَخَذَتْ تَدْعُو لَهُ، فَدَفَعَهَا برِفْقٍ نَحْوَ الْباب، وأَقْفلهُ خَلْفَهَا، وَأَخْرَجَ مِن جَيْبِ سُتْرَتِهِ حُقْنَةً، وَفَكَّ مفْصَلَ الأُنْبُوب الْوَاصِلِ بَيْنَ الـزُّجَـاجَـةِ وَالإِبْرَةِ، وَصَبَّ فِيـهِ مُحْتَوَى الحُقْنَةِ السَّامَ...

وَبَيْنَمَا هُوَ فِي خِضَمِّ عَمَلِيَتِـهِ، إِذْ أَوْمَضَتْ أَضْوَاءُ آلاَتِ التَّصْوِيرِ مِن خَلْفِهِ، فَالْتَفَتَ وَقَد ارْتَسَمَ الرُّعْبُ الشَّدِيـدُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا مُصَوِّرٌ يَخْرُجُ مِن خِزَانَـةٍ، يَلْتَقِـطُ صُوَراً سَرِيعَـةً بِدُونِ تَوَقُّفٍ...

وَرَفَعَ يَـدَهُ لِيَضْرِبَ آلَـةَ التَّصْوِيرِ، فَفُوجِئَ بِيَـدٍ قَـوِيَّـةٍ تُمْسِكُ بِيَدِهِ مِن الخَلْفِ، وَبِذِرَاعٍ حَدِيدِيَةٍ تُطَوِّق عُنُقَهُ !

وَأَحَاطَ بِهِ رِجَالٌ مُسَلَّحُونَ...

وَجَلَسَ المَرِيضُ «نَـــدِيم شِيرِيفْيَـــان» فِي السَّرِيرِ، وَأَمَاطَ بِلاَسْتِيك الْخَيْمَةِ عَنْهِ، وَأَخَذَ يَنْزِعُ الأَنَابِيبَ اللاَّصِقَـةَ



عَلَى سَاعِدِهِ، وَالْمَوْصُولَةَ بِزُجَاجَةٍ تَحْتَفِظُ بِالسَّائِلِ المَسْمُومِ كَدَلِيلِ إِثْبَاتٍ...

وَانْفَتَحَ البَابُ، فَدَخَلَ عَدَدٌ مِن رِجَالِ الشُّرْطَةِ البَحْرِيَةِ، وَضُبَّاطِ التَّحْقِيقِ، وَقَادُوا الْقَائِدَ (سِيبَانْكَان) أَمَامَهُمْ، وَهُوَ يَرْتَعِشُ مِن الغَضَبِ وَالانْفِعَالِ وَالإِهَانَةِ التِي لَحِقَتْ بِذَكَائِهِ وَمَكْرِهِ !

وَقَبَضَتِ الشُّرْطَةُ عَلَى الرَّقِيب (بْرُونْزَان)، شَرِيكِهِ وَسَاعِدِهِ الأَيْمَن، الذِي كَانَ يَنْتَظِرُهُ فِي السَّيَّارَةِ، عَلَى بَابِ الْمُسْتَشْفَى، حَتَّى لاَ يَتَسَرَّبَ خَبَرُ اعْتِقَالِهِ إِلَى العِصَابَةِ.

وَقُبِضَ عَلَى جَمِيعِ طَاقَمِ (الجُمَانَة)، وَجَرَى التَّحْقِيقُ مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ عَلَى حِدَةٍ، وَاعْتَرَفَ بَعْضُهُمْ بِجُزْءٍ مِن الْجَرَائِمِ، وَالآخَرُ بِالْبَاقِي، حَتَّى اكْتَمَلَتِ الصُّورَةُ لَدَى رِجَالِ التَّحْقِيقِ...

وَقَبْلَ صَبَاحِ الْيَوْمِ التَّالِي، كَانَ جَمِيعُ أَعْضَاءِ عِصَابَةِ

تَهْرِيبِ الْمُخَــدِّرَاتِ، وَمُرَوِّجِيهَــا فِي الْمُــدُنِ، وَعَــدَدٌ مِن زَبَائِنِهِم، رَهْنَ الاعْتِقَال فِي مُعَسْكَرٍ كَبِيرٍ.

وَأُشْعِرَ الأَنْتِرْ بُول - البُولِيسِ الدَّوْلِي - بِأَسْمَاءِ وَعَنَاوِينِ أَعْضَاءِ العِصَابَةِ الدَّوْلِيةِ، الْمُتَعَاوِنَةِ مَعَ (سِيبَانْكَان) وَعِصَابَتِهِ بِالْخَارِجِ... وَلَكِنْ، مَا كَادَ رِجَالُ الأَنْتِرْ بُول يَصِلُونَ إِلَى مَنَازِلِهِمْ، حَتَّى كَانَ الخَبَرُ قَدْ وَصَلَهُمْ، فَلَمْ يُعْثَرْ لَهُمْ عَلَى أَثَرٍ..

وَرَفَضَ (سِيبَانْكَان) الاعْتِرَافَ بِأَيِّ شَيْءٍ... وَحَضَرَ جَيْشٌ عَرَمْرَمٌ من الْمَحَامِينَ الْمَحَلِّيين وَالأَجَانب، للدِّفَاع عَنْهُ، وَعَنْ أَفْرَاد عِصَابَتِه، حَتَّى أَغْرَقُوا الْمَحْكَمَةَ، وأَرْهَقُوا الْقُضَاةَ بتدَخُّلاتِهم.

وَحكمت المحْكمةُ، في النِّهاية، على (سيبانْكان) بعِشْرِينَ سَنَةً سجْناً نافذةً. وأُطْلِق سراحُ طاقم «الجُمانة» بدَعْوَى أَنَّهُمْ كَانُوا يُنَفِّذُونَ الأَوامِر.

وَقَبْلَ أن يَنْطِقَ الْقَاضِي بِالْحُكْمِ، وَجَّهَ الْخِطَابَ إِلَى

(سِيبَانْكَان)، أَمَامَ الْقَاعَةِ الغَاصَّةِ بِالْمُحَامِينَ وَرِجَال الأَمْن، وَطَلَبَةِ الْقَانُونِ الذِينَ اجْتَذَبَتْهُمْ شُهْرَةُ الْقَضِيَةِ، وَأَهْمِيَةُ الْمُتَّهَمِينَ، وَقَالَ :

«قَبْلَ أَن أَنْطِقَ بِالْحُكْمِ، أَعْرِفُ أَنَّ أَمْثَالَكَ، مِمَّنْ بَاعُوا ضَمَائِرَهُمْ لِلشَّيْطَانِ، لاَ تَحْجُبُهُم قُضْبَانُ السُّجُونِ عَن مُمَارَسَةِ جَرَائِمِهِمْ... لِذَلِك، فَأَنَا أُنْذِرُكَ، وَأُشْهِدُ جَمِيعَ الْحَاضِرِينَ عَلَيْكَ، أَنَّ أَيَّ أَذًى يُصِيبُ السيد «نَدِيم شِيرِيفْيَان»، أَو ابْنَهُ (مِيخَائِيل)، حَتَّى وَلَوْ كَانَ وَجَعَ ضِرْسٍ، سَتَكُونُ أَنْتَ المَسْؤُولَ عَنْهُ !».

وَحَاوَلَ «سِيبَانْكَان» الْوُقُوفَ وَالاِحْتِجَاجَ، وَلَكِنَّ مُحَامِيَهُ أَجْلَسَهُ بِقُوَّةٍ.

وَنَطَقَ القَاضِي الحُكْمَ، وَاقْتِيدَ (سِيبَانْكَان) مُسَلْسَلَ اليَدَيْنِ، تَسْبِقُهُ كَرِشُهُ إِلَى السِّجْنِ.

وَهَكَذَا تَمَّ، وَلَوْ مُؤَقَّتاً، شَلُّ حَرَكَةِ عِصَابَةٍ مِن أَكْبَرِ

وَأَخْطَرِ الْعِصَابَاتِ الَّتِي كَانَتْ تُرَوِّجُ السُّمُومَ، وَتَقْضِي عَلَى أَعْظَمِ ثَرْوَةٍ فِي الْبِلَادِ : عُقُولِ شَبَابِهَا !

- 28 -

أَمَّـا (نَـدِيم شِيرِيفَيَـان) فَقَـدْ رُقِّيَ إِلَى دَرَجَـةِ قَـائِـدٍ، وَأُعْطِيَ قِيَادَةَ «الجُمَانَة» جَزَاءً لَهُ عَلَى شَجَاعَتِهِ وَاسْتِقَامَتِه... وَاخْتَارَ طَاقَمَـهُ مِن بَيْنِ الشَّبَـابِ المُتَحَمِّسِ لِخِـدْمَـةِ وَطَنِـهِ، وَمُقَاوَمَةِ الْفَسَادِ وَالتَّهْرِيب.

وَأَصْبَحَتِ المِيَاهُ الإِقْلِيمِيَةُ (لامارة الجمانة) نَظِيفَـةً مِن الْعِصَابَـاتِ، وَمُخَـالِفِي القَـانُـونِ، مِن الصَّيَّـادِينَ الأَجَـانِب وَغَيْرِهِم مِن الْمُلَوِّثِينَ... وَازْدَهَرَتْ حَيَاةُ الأَسْمَاكِ وَالنَّبَاتَـات البَحْرِيَة، مُبَشِّرَةً بِالأَمْنِ الْغِذَائِيِّ لِجَمِيعِ سُكَّانِ الْمِنْطَقَة.

وَالْتَحَقَ (مِيخَائِيل) بِقِسْمِ البِيُولُوجِيَـةِ الْبَحْرِيَـةِ، بِكُلِّيَـةِ

الْعُلُوم بِالْجَامِعَةِ، بِمِنْحَةٍ سَخِيَةٍ مِن الْبَحْرِيَةِ، عَلَى أن يَلْتَحِقَ بِقِسْمِ أَبْحَاثِهَا عِنْدَمَا يَتَخَرَّجُ...

- 29 -

وَأَثْنَاءَ دِرَاسَتِهِ وَانشِغَالِهِ بِالاسْتِمَاعِ إِلَى المُحَاضَرَاتِ، وَإِجْرَاءِ التَّجَارِبِ فِي المُخْتَبَرَاتِ، كَانَتْ تُومِضُ فِي ذِهْنِهِ، مِن حِينٍ لآخَرَ، ذِكْرَيَاتُ «مَدِينَةِ الأَعْمَاقِ»، وَ«القَارَّةِ السَّادِسَةِ»، وَجَمِيعِ الْوُجُوهِ التِي رَآهَا هُنَاكَ، وَالْمُخْتَبَرَاتِ الْحَدِيثَةِ جِدّاً، وَالعُلَمَاءِ الدَّوْلِيين، وَالْمُنْجَزَاتِ الْخَيَالِيَةِ التِي لاَ يُصَدِّقُهَا الْعَقْلُ، وَكَذَلِكَ الحَادِثُ الرَّهِيبُ الَّذِي رَمَى بِهِ إِلَى البَرِّ، بِشَكْلٍ غَامِضٍ، هُوَ وَأَبِيهِ، دُونَ أَنْ يَعْرِفَا مَصِيرَ الْمَدِينَةِ الْمُسْتَقْبَلِيَةِ، أَوْ يَجْرُؤَا عَلَى أَنْ يُحَدِّثَا بِهَا أَحَداً...

وَأَخَذَ يَخْتَلِي بِنَفْسِهِ عَلَى شَاطِئِ الْبَحْرِ، لِيَسْتَرْجِعَ

تِلْكَ الذِّكْرَيَاتِ التِي بَدأَ يَشُكُّ، مَعَ مُرُورِ الأَيَّامِ وَالأَسَابِيعِ، فِي حَقِيقَتِهَا... وَبَدأَ يَتَصَوَّرُ أَنَّهَا رُبَّمَا كَانَتْ أَحْلاَماً رَآهَا فِيمَا يَرَاهُ الأَمْوَاتُ، أَوْ المُغْمَى عَلَيْهِم مِن أَضْغَاثِ أَحْلاَمٍ... وَمَنْ يَدْرِي ؟ لَعَلَّ الأَمْوَاتَ يَحْلُمُونَ كَذَلِكَ !

شَيْءٌ وَاحِدٌ لَم يَفْقِدْ حَرَارَتَهُ وَوَاقِعِيَتَهُ فِي ذَاكِرَتِهِ، وَلَمْ تَشْحُبْ تَفَاصِيلُهُ أَوْ تَتَلاَشَى، ذَلِكَ هُوَ وَجْهُ (رَنْدَة رِيم) الضَّاحِكُ الْمَرِحُ... كَانَ يَزُورُهُ كُلَّ لَيْلَةٍ، حَتَّى يَكَادَ يَسْمَعُ أَغَارِيدَ قَهْقَهَتِهَا الصَّامِتَةِ فِي جَوِّ غُرْفَتِهِ وَهُوَ نَائِمٌ ! وَيُحِسُّ بِنَشْوَةٍ عَارِمَةٍ تَكَادُ تُوقِظُهُ مِن عُمْقِ نَوْمِهِ... وَيَسْتَيْقِظُ فَيَجِدُ عَيْنَيْهِ وَوِسَادَتَهُ مُبْتَلَّةً بِدُمُوعِ الشَّوْقِ وَالْبَهْجَةِ وَالْحُبُورِ.

- 30 -

وَذَاتَ يَوْمٍ، رَجَعَ مِيخَائِيل مِنَ الْكُلِّيَةِ إِلَى دَارِهِ، فَوَجَدَ عَلَى مَكْتَبِهِ رِسَالَةً عَلَيْهَا طَوَابِعُ أَجْنَبِيةٌ. فَتَحَهَا وَقَرَأَ فِي بِدَايَتِهَا تَحْذِيراً بِخَطٍّ أَحْمَرَ بَارِزٍ : «إِقْرَأْ هَذِهِ الرِّسَالَةَ بِسُرْعَةٍ. مِدَادُهَا سَيَتَبَخَّر بَعْدَ عَشْرِ دَقَائِق مِن فَتْحِهَا »

ثُمَّ : «عَزِيزِي مِيخَائِيل،

. أَنَا رَنْدَة رِيم... أَتَذْكُرُنِي ؟ هَا ! هَا ! هَا ! اسْتَأْذَنْتُ وَالِدِي فِي الْكِتَابَةِ إِلَيْكَ، فَلَمْ يَأْذَن لِي إِلاَّ الآنَ، لأَسْبَابٍ أَمْنِيَةٍ أَجْهَلُهَا. الحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى سَلاَمَتِكَ وَشِفَائِكَ مِن غَضَبِكَ، وَوُقُوعِ المُجْرِم فِي يَدِ الْعَدَالَةِ، وَعَوْدَةِ وَالِدِكَ إِلَيْكَ.

«اليُـونُسِيَـة» بِخَيْرٍ. الـذِي حَـدَثَ كَـانَ زِلْـزَالاً عَنِيفـاً أَحْدَثَ بَعْضَ الأَضْرَارِ الطَّفِيفَةِ.

ظَنَنْتُـــكَ مِتَّ ! بَكَيْتُ كَثِيراً، حَتَّى طَمْـــأَنَنِي أَبِي بِإِخْبَارِي بِأَنَّهُمْ أَعَادُوكَ إِلَى الْيَابِسَةِ لإِتْمَامِ عِلاَجِكَ. وَلَكِنَّنِي لَمْ أَتَـــأَكَّـــدْ إِلاَّ حِينَ قَرَأْتُ فِي جَرَائِـــدِنَـــا، وَرَأَيْتُ فِي التِلِفِزْيُونِ، أَخْبَارَ الْقَبْضِ عَلَى «سِيبَانْكَان» وَعِصَابَتِهِ.

الجَمِيعُ يَقُولُونَ إِنَّ مَكَانَكَ مَعَنَا هُنَا فِي «اليُونُسِيَـة»، وَ«القَـارَّة السَـادِسَـة» عَلَيْـكَ إِذَنْ أَنْ تَتَـوَجَّـهَ بِكَـامِلِـكَ إِلَى الدِّرَاسَةِ، وَانْتَظِرِ مُفَاجَأَةً سَارَّةً !

وَصَلَتْنَـا أَخْبَـارٌ مُزْعِجَـةٌ عَن عَـوْدَةِ (سِيبَـانْكَـان) إِلَى جَرَائِمِـهِ، رَغْمَ وَجُـودِهِ فِي السِّجْنِ. فَقَـدِ اسْتَطَـاعَ أَن يَرْشُـوَ إِدَارَةَ السِّجْنِ بِأَكْمَلِهَا، وَيجْعَلَهَا فِي خِدْمَتِـهِ. غُرْفَتُـهُ صَـالُونٌ مَلَكِي، بِــهِ سَرِيرٌ ضَخْمٌ، وَتِلِفُــون لاَسِلْكِي، وَتِلِفِــزْيُــون، وَفِيـدْيُو، وَثَلاَّجَـةٌ بِجَمِيعِ أَنْوَاعِ الْمَشْرُوبَـاتِ، وَلَـهُ الحَقُّ فِي اسْتِقْبَـالِ مَن يَشَـاءُ فِي أَيِّ وَقْتٍ أَرَادَ ! وَتِجَـارَتُـهُ الْمُحَرَّمَـةُ

أرْوجْ من أيِّ وقْتٍ مَضى ! وَهُوَ يَنَامُ فِي دَارِهِ !

نَاقَشَ مُؤْتَمرٌ «بالْيُونُسِيَة» مَسْأَلَة المُخَدِّرَاتِ، وَوَسَائِلَ الْقَضَاءِ عَلَى انْتِشَارِهَا، بَعْدَ أن أَصْبَحَتْ وَبَاءً يُهَدِّدُ شَبَابَ العَالَمِ بالْجُنُونِ وَالْفَنَاءِ، فَخَرَجُوا بِنَتِيجَةٍ وَاحِدَةٍ، هِي أَنَّهُ يَجِبُ القَضَاءُ عَلَى الطَلبِ لاَ عَلَى «العَرْضِ». هَلِ فَهِمْتَ ؟ أَعْنِي أَنَّهُ يَنْبَغِي القَضَاءُ عَلَى الإدْمَانِ بَيْنَ النَّاسِ، حَتَّى لاَ «يَطْلُبُوا» الْمُخَدِّرَاتِ !

وَلَكِن كَيْفَ ؟

هَذَا مَا يُحَاوِلُ قِسْمُ الْكِيمِيَاءِ، وَالصَّيْدَلَةِ، وَالبيُولُوجِيَةِ، الاجَابَةَ عَنْهُ الآنَ. وَأَعْتَقِدُ أَنَّ هُنَاكَ تَبَاشِيرَ فِي الأُفُق بِنَجَاحِ الأبْحَاثِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا المَيْدَانِ... فَقَدْ تَوَصَّلَ العُلَمَاءُ إلَى صُنْعِ عَقَارٍ يَشْفِي مِن الإدْمَانِ عَلَى الْمُخَدِّرَاتِ !».

وقَفَزَ (ميخائيل)، عِنْدَ قِرَاءَةِ هَذِهِ الْجُمْلَةِ، فَرَحاً وحَمَاساً ! وَوَاصَلَ الْقِرَاءَةَ :

«وَهُمْ يُجَرِّبُونَهُ الآنَ عَلَى بَعْضِ الْحَيَوَانَاتِ وَالْمُتَطَوِّعِينَ... نَتِيجَتُهُ مُدْهِشَةٌ ! وَإِذَا لَمْ يَكُن لَهُ مَفْعُولٌ جَانِبِيٌ سَيِّءٌ، فَسَيُعْلِنُونَهُ عَلَى الْعَالَمِ. أَلَيْسَ ذَلِكَ رَائِعاً ؟!

وَالأَهَمُّ مِن هَذَا هُوَ أَنَّهُ رَخِيصُ التَّكْلُفَةِ، وَيُمْكِنُ خَلْطُهُ مَعَ مَاءِ الشُّرْبِ، بِخَزَّانِ الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ، بِحَيْثُ يُعَالِجُ الْمُدْمِنِينَ دُونَ أَن يَنْتَبِهُوا... كَمِّيَةٌ قَلِيلَةٌ مِنْهُ تَكْفِي، وَلاَ يَضِرُّ بِغَيْرِ الْمُدْمِنِين.

وَكُلُّ مَنْ يَشْرَبُهُ يَكْرَهُ رَائِحَةَ كُلِّ مُخَدِّرٍ مِن أَيِّ نَوْعٍ كَانَ... وَإِذَا أُجْبِر عَلَى أَخْذِ مُخَدِّر، فَإِنَّهُ يُصَاب بِغَثَيَانٍ شَدِيدٍ وَقَيْءٍ !

آسِفَةٌ أَنَّكَ لَسْتَ مَعَنَاهُنَا، لِلْمُشَارَكَةِ فِي هَذِهِ الأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ ! وَلَكِنَّ الْمُسْتَقْبَلَ أَمَامَنَا. وَهُنَاكَ أَمْرَاضٌ كَثِيرَةٌ تَنْتَظِرُ اكْتِشَافَ العِلاَجِ، مِثْلُ (الايدز)، فُقْدَانُ المَنَاعَةِ المُكْتَسَبَةِ، وَالسَرَطَانِ، وَغَيْرِهِمَا».

مطابع عكاظ
12 زنقة أبو نواس الرباط (المغرب)
رقم الايداع القانوني 87/ 637

رواية الخيال العلمي ، والرواية البوليسية ، جديدتان على الأدب العربي . ويُعدُّ كتابها على أصابع اليد الواحدة . ومن روادها الأولين ، في العالم العربي ، الكاتب المغربي ، أحمد عبد السلام البقالي ، صاحب رواية «الطوفان الازرق» ، و«سأبكي يوم ترجعين» ، و«المدخل السِّرِّي إلى كهف الحمام» ، و«مدائن السراب» ، و«السفينة الشبح» .

ويرتادُ الأستاذ البقالي في روايته الجديدة «مدينة الاعماق» ، أفقاً جديداً يمزج فيه بين الفنين المشوقين ؛ البوليسي ، والخيال العلمي بدقة صانع ماهر ، معالجاً عدة قضايا من أهم القضايا الانسانية في العصر الحديث ، بأسلوبه التشويقي المعروف .

والرواية مشكلة كلُّها لصالح الصغار والذين يتَعلمون العربية .

الناشر

كلاسيكيات